مَلَائِكَةٌ فِي النَّارِ

الكتاب: ملائكة في النار
المؤلف: حازم نجيب
تصميم الغلاف: إسلام مجاهد
تدقيق لغوي: عبد الهادي عباس
إخراج فني: سُكون
رقم الإيداع: 3530/ 2018
ردمك: 978-977-6549-59-9
الطبعة الأولى: 2018

المدير العام: هالة البشبيشي
المدير التنفيذي: شريف الليثي

تويا
دار تويا للنَشر والتَوزيع

(+2) 01066444204
(+2) 01000706014
dartoya2015@gmail.com
دار تويا للنشر والتوزيع dar.toya
@Dar Toya
@Dar_Toya
٣٥ شارع النصر..
المعادي الجديدة نوفمبر ٢٠١٧

حازم نجيب

مَلَائِكَةٌ فِي النَّارِ

مَجْمُوعَةٌ قَصَصِيَّةٌ

تويا
دار تويا للنَشر والتَوزيع

إهداء:

إلى جدِّي الرَّاحلِ العظيمِ: خيري عبد الهادي..
كم تمنيتُ أن تكون كلماتي بين يديْك..

شكرٌ خاص:

لعائلتي الحبيبةِ.. أبي وأمي وأخي وزوجتي وابنيَّ: أحمد وحلا..

شكرٌ واجبٌ لـ:

الكاتب الكبير د. محمد المخزنجي..

د. سالي مجدي

د. عبد العزيز الشامي

أ/ محمد عباس

د. عمرو مرزوق

د. إيمان حامد

د. محمد الفقي

أ/ محمد مسعد

أ/ محمد صبحي

أكدب عليك!

- أين أنت ذاهبٌ يا حبيبي؟

- سأذهب إلى عشاء عملٍ مهم، آسفٌ يا حبيبتي، أعرفُ أنني وعدتك أنني سأقضي الليلةَ معك ونتناول عشاءنا معًا، ولكن سأعوضها لك في أقرب فرصةٍ.

فجأةً يحدث شيء غريبٌ، تلتصق ورقةٌ صغيرةٌ غريبةُ الشكل والملمس على جبهته مكتوبٌ عليها كلمة واحدة.

- ما تلك الورقة؟

- أي ورقة؟

- هناك ورقةٌ على جبهتك مكتوبٌ عليها كاذب.

يمدُّ يدَه ويُمسك بالورقةِ العجيبةِ، مكتوبًا عليها كاذبٌ فعلًا.

- قلتَ لي أين أنت ذاهبٌ؟

- مم... كنتُ سأذهبُ لآتي لك بهديةٍ، فقد تذكرتُ أنني منذ زمنٍ لم آتِ لك بشيء، فقررتُ أن أذهب اليوم لأختارَ لك هديةً تليقُ بك.

إنها الورقةُ مرةً أخرى.

يرنُّ هاتفُه المحمولُ، لا بد أنها عشيقته، لقد تأخر عليها بالفعل.

- مَن يتصل بك؟

- إنه.. إنه... لا أحد. ويُغلق هاتفه المحمول.

تدورُ الكاميراتُ ويشير المخرج لبدء أحد أشهر برامج التوك شو، يظهر المذيعُ بأناقتهِ المعهودةِ ويبدأ في الحديثِ إلى المشاهدين.

أهلًا ومرحبًا بكم مُشاهدينا، نبدأ حلقتنا بالأخبار السريعةِ، سقط اليوم نيزكٌ على إحدى المناطق الصحراوية غير المأهولة بالسكانِ وأحدث سقوطًا أرضيًّا في المنطقةِ، وانتقلت قواتُ الحمايةِ المدنيةِ إلى المكانِ وأكدت عدم سقوط ضحايا.

أما الآن فسنتحدثُ اليومَ عن بيانِ الحكومةِ، بيانٍ تاريخي مليء بالإنجازاتِ التي تتحققُ على أرضِ الواقعِ ويشعرُ بها الجميعُ.

تظهر الورقةُ على جبينهِ فيُشير إليه المخرجُ أن يُزيلها، لا يفهم مقصده ويُكمل حديثه:

نُريد أن نشكرَ السَّادةَ الوزراءَ على جهودهم الحثيثة لضبط الأسعارِ وإنجازاتهم مما أثَّر بالإيجابِ على مستوى المعيشةِ خاصةً لمحدودي الدخل.

تظهر ورقةٌ أخرى يشير المخرج إليه مرةً أخرى، يُمسك بها المذيعُ وينظرُ إليها وتظهر الصدمة والدهشة على وجهه، تخرج الكلماتُ منه متلعثمةً :

فاصل ونعود.

- هل انتهيت من دراسة الجدوى؟

- بالطبعِ يا سيادة المدير طلباتك أوامر، وأضفت إليها كل ما

طلبته مني واكتشفت فعلًا أن بدون إضافاتك كان سينقصها الكثير، لا أدري كيف كانت ستُدار الشركة بدون حكمتك وخبراتك التي نستفيد جميعًا منها.

– ما هذا الذي على جبهتك؟

دلف إلى المبنى الزجاجي الفخم وصعد الدرج في رشاقةٍ لا تتناسب مع حُلته الأنيقة.. طرَق بابَ مديرِه.

– ادخل!

– صباح الخير يا فندم.

– اتفضل!

– خير سيادتك؟

– طبعًا أنت تعلمُ موضوعَ تلك الورقة.

– طبعًا، مَن في البلدِ كلهِ لا يعلمه، ورقة العار كما يُسمونها تظهر على الجبهةِ بعد كل كذبةٍ، أدَّت تلك الورقةُ لزيادةِ حالاتِ الطلاق والمشاجرات وازدادت حالاتُ الاكتئابِ من الصدق الذي أصبح يُعرض في برامج التليفزيون من تصويرٍ حيٍّ للواقعِ.

– لذا؛ فقد عهدتُ إليك بهذا الملف، فقد صدرت أوامر عليا بحلِّ هذا الموضوع في أقرب وقتٍ ممكنٍ؛ فالصدقُ أصبح يُهدد الأمن القومي.

– ولِمَ يكذب الناسُ على بعضٍ، لِمَ لا يقولون الحقيقة ويتخلصون من تلك الورقةِ للأبد؟

– الصِّدق أصبح يجلبُ المشاكل دائمًا في زماننا، الناس أصبحت تكذبُ حتى على أنفسهم ليتمكنوا من العيشِ في سلامٍ؛ حتى التاريخ

هو عبارةٌ عن مجموعةِ أكاذيب متفق عليها يكتبه من يحكم. الكذب يُعطي عزوة للوحيد، يُعطي قوةً للضعيفِ، يُعطي حياةً للميت، يُعطي سعادةً للحزين، الناس يكذبون حتى في سلامهم، عندما يسأل أحدُهم الآخر يرد عليه: بخير، كل شيء على ما يُرام، وهو حياته مليئةٌ بالهموم والمشاكل والأحزان.

– سؤال أخير: لماذا تظهر تلك الورقة لعامة الشعب فقط؟

– سؤالٌ ذكي، لأننا احترفنا الكذبَ، أصبحنا نتنفسه كالهواءِ، اختلط الكذبُ بالصدقِ في كلامِنا حتى إنه لا أحدَ يستطيعُ التفرقةَ بينهم، حتى تلك الورقة اللعينة. حظ سعيد في مُهمتك.

يطلبون مني مهمةً مستحيلةً.

يقولها لنفسهِ وهو يُراجع التقارير والأوراق المُتعلقة بتلك الورقةِ؛ مئاتُ المُشاجراتِ يوميًّا، وحالاتُ الطلاق ازدادتْ بشكلٍ ملحوظٍ. انقطعت العَلاقات الاجتماعيةُ وأغلقت برامج التوك شو بدعوى أنها تبثُّ أخبارًا كاذبةً.

كلُّ هذا بسبب انتشار الصِّدق بين الناس. أصبح الجميعُ يعمل ألف حساب لظهور تلك الورقة الفاضحة فانتشر الصِّدق في البلادِ كالنار في الهشيم. لم يتحمل مجتمعنا الهشُّ الحقيقةَ فأصبح في طريقهِ للانهيار؛ أصبحت العُزلة هي الحل. مكث الجميعُ في بيوتهم لا يخرجون منها؛ حتى في البيوت انتشر الخرسُ وزهد الناس في الكلام؛ بعد كل هذا يطلبون مني حل تلك المشكلة.

يُراجع جميعَ الجرائد وأخبار الإنترنت والبرامج الحوارية في الفترة التي ظهرتْ فيها تلك الورقة على الجباه؛ يلفتُ نظرَه شيءٌ غريبٌ؛

خبرٌ مُوحدٌ موجودٌ في كل وسائل الإعلام في ذلك اليوم، خبر سقوط النيزك في تلك البقعة الصحراوية. هل هي مصادفةٌ؟

يضربُ الجرس لمُساعده: جهِّز لنا سيارةً الآن، سنذهبُ إلى مكانِ سقوط النيزك، ولا أريد أحدًا أن يعرفَ وِجهتنا؛ المطلوب السرية التامة.

يصلون إلى البلدة القريبة من الموقع؛ يختارون دليلًا ليُرشدَهم، الطريق وسط دروبِ الصحراء ليصلوا إلى المكانِ الموعودِ، صحراءُ قاحلةٌ صفراءُ لا حياةَ فيها سواها؛ شجرةٌ باسقةٌ لم يروا مثلها في حياتِهم تخرج وسط الرمال والصخور كأنها تتحداهم بقوتها؛ يقتربون منها في حذرٍ، يقطف ورقةً من أوراقِ الشجرةِ يجد لونَها وملمَسها غريبًا لم يره من قبل.

اكذب عليَّ! قالها لمساعده. ماذا تعني يا باشا؟ أقول لك اكذب عليَّ. أنا سعيدٌ جدًّا في حياتي. تظهر الورقة على جبهةِ مُساعده فيلتقطها بسرعةٍ ويُقارن بينها وبين أوراق الشجرة. إنها هي، نفس اللون والملمس. يعودون إلى البلدةِ ويستقلون السيارة عائدين بعد أن أكدوا على الدليلِ أنَّ الأمرَ سريٌّ للغايةِ وعليه أنْ يتبع السرية التامة.

يدخل إلى غرفةِ مُديره في سرعةٍ وحماسٍ.

– عرفنا مصدر تلك الورقة.

– الشجرة؟

– ممم.. كيف عرفت سيادتك، لقد تم الأمرُ في سرِّيةٍ كاملةٍ.

يفتح المديرُ التلفاز ويُقلب بين القنوات؛ لا حديثَ لهم سوى عن الشجرةِ وأصل الورقة.

– سرية كاملة؟

الدليل اللعين الكاذب.

- أنا آسفٌ سيادتك، وأنتظرُ الأوامر.

- أي أوامر؟!! الأمرُ لا يحتاجُ إلى أوامر؛ يجب قطعُ هذه الشجرة في التوِّ واللحظةِ، الأمرُ لا يحتملُ التأخير؛ سأرسلُ معك قوةً لاقتلاعِ شجرةِ الصدق من جُذورِها.

يصلون إلى موقعِ الشجرةِ ليجدوا زحامًا شديدًا حولها يمنعهم من الوصول إليها؛ مئاتٌ من الصَّادقين من الشبابِ والنساءِ والشيوخِ يلتفون حول الشجرةِ يُمسكون بأيدي بعضهم ليُكوِّنوا طوقًا حولها، والآلاف يُحيطون بهم يُريدون إبعادَهم بالقوةِ.

اتركوا الشجرةَ في سلام؛ لِمَ تُريدون الكذبَ والخُداعَ أن ينتشرَ بينكم مرةً أخرى؟! لِمَ تُريدونَ الأكاذيبَ أن تتحكمَ في حياتكم مرةً أخرى؟! مَن يغضب لقول الحقيقةِ هو مَن يعيشُ في كذبةٍ كبيرةٍ كبالونٍ كبيرٍ لا يُريد الخروجَ منه؛ الكذب كريشةٍ في مهبِّ الرِّيح، أمَّا الصِّدقُ فراسخٌ في الأرضِ كتلك الشجرةِ الباسقةِ أصلُها ثابتٌ لن تستطيعوا اقتلاعَه؛ الصِّدق قد تكون أنيابُه حادةً أحيانًا، ولكنه كمشرط الطبيب يجرح ليُداوي؛ من الأفضل أن تقولَ الحقيقةَ وتجعل أحدهم يبكي على أن تكذبَ لتجعله يضحك؛ سيؤلمكم الصِّدق في البدايةِ، ولكن بعدها سيُحرر أرواحَكم البائسةَ، إنه طريقُ الخلاص الوحيد.

يقتربون منهم وأعينهم مليئةٌ بالشرِّ؛ تفترقُ الأيدي المتشابكةُ وتذهب كل منها إلى طريقها.

أفسحوا الطريق! جاء مَن سيقتلع الشجرة، يخترقُ صوتُ المنشار القاسي الصمت المُحيط ويمر وسط الجذع القوي، رويدًا رويدًا تهتز الشجرة وتسقط مُحدثةً صوتَ ارتطامٍ رهيبٍ تتطاير منه الرمالُ

والأتربة لتملأ المكان؛ صرخاتُ الفرح والبهجة تملأ الكون، يحتضن الجميعُ بعضهم ويتبادلون التهاني الحارة.

فجأةً يسمعون صوتًا رهيبًا كأن أبوابَ الجحيم تُفتح؛ تظهر شقوقٌ واسعةٌ حولهم وتخرج من بينها شجرتان أخريان؛ ينظر الجميعُ إلى بعضٍ في دهشةٍ؛ ينطلقون بكل غضبِ الدنيا نحوهم ليقتلعوهما كأن هناك ثأرًا بينهم وبين تلك الأشجار، تسقط الأشجار وتنبت أربع أشجار بدلًا منها؛ كلما قطعوا شجرةً نبتت أضعافها حتى امتلأ المكانُ بالأشجار التي لا تنتهي؛ ظلوا يقطعون الواحدةَ تلو الأخرى حتى أيقنوا أن شجرة الصِّدق لن تُقتلع.

– وما العملُ الآن؟ وضعتنا في موقفٍ مُحرجٍ بعد واقعةِ الأشجار تلك؛ ينتظرُ الجميعُ منا الحل.

– أنا لديَّ حلٌّ أخيرٌ.

– هاتِ ما عِندك بسرعةٍ!

– التعايش.

– التعايش؟!

– نعم التعايش؛ لا يُوجد حلٌّ آخر.

– وهل تظن أن الناسَ ستقتنعُ بهذا الحل؟

– الناس الآن كالغرقى في بحرٍ مُتلاطمِ الأمواج؛ يتمنون ولو قشةً لتُنقذهم، ونحن سنُعطيهم قاربًا لا قشة؛ سنُرسل رجالنا في المقاهي والأسواق ليطرحوا هذا الحل، وأنا واثقٌ تمام الثقة من النتيجة.

– لن نخسرَ شيئًا فلنجرب!

– أين أنت ذاهبٌ يا حبيبي؟

– سأذهبُ إلى عشاء عمل مهم؛ آسفٌ يا حبيبتي أعرف أنني وعدتك أنني سأقضي الليلة معك ونتناول عشاءنا معًا، ولكن سأعوضها لك في أقرب فرصةٍ.

تلتصق الورقةُ بجبهتهِ.

– حسنًا، ولكن لا تتأخر يا حبيبي!

تدورُ الكاميرات ويُشير المخرج لبدء البرنامج؛ يظهر المذيعُ بأناقته المعهودة ويبدأ في الحديثِ إلى المشاهدين.

أهلًا ومرحبًا بكم مشاهدينا؛ أما الآن فسنتحدث اليوم عن بيانِ الحكومة، بيان تاريخي مليء بالإنجازات التي تتحقق على أرضِ الواقعِ ويشعر بها الجميع.

تظهرُ الورقةُ على جبينهِ فيشير إليه المخرجُ أنْ يُكمل؛ يُكمل والورقةُ على جبهتهِ والابتسامةُ لم تُفارق وجهه.

– هل انتهيت من دراسةِ الجدوى؟

– بالطبع يا سيادة المدير طلباتك أوامر؛ وأضفت إليها كل ما طلبته مني واكتشفت فعلًا أن بدون إضافاتك كانت سينقصها الكثير؛ لا أدري كيف كانت ستُدار الشركة بدون حكمتك وخبراتك التي نستفيد جميعًا منها.

تظهر الورقة.

– أنت موظفٌ مجتهدٌ وسيكون لك مستقبلٌ باهرٌ، أنت تُذكرني بشبابي.

❋❋❋

مِن حقِّنا نحلُم

أقـودُ سـيارتي الحديثـة مسرعًـا وسـط الشـوارع الواسـعة الخاليـة؛ وأسـتمعُ إلى أغنيـة مطـربي المُفضـل وجيـه عزيـز (مـن حقنـا نحلـم)؛ وأدنـدن مـع صوتـه المُعـبر وألحانـه الهادئـة:

«من حقنا نحلم

ولو كده وكده

ونشوف الدنيا حلوة مع إنها مش كده

مثلا الكون الجميل

والنيل بقى ألف ميل

وطن مالوش مثيل في الدنيا كلها»

أصـلُ إلى مـكانِ عمـلي في مصلحـةِ الضرائـب في الحـي الراقـي وأجـدُ مكانًـا لسـيارتي بسـهولةٍ وأدخـلُ إلى المبنـى العـالي الزجاجـي، يُحيينـي كلُّ مَـن يُقابلنـي بالابتسـامةِ الهادئـةِ المُعتـادةِ وأردهـا لهـم؛ أدخـلُ إلى مكتبـي لتسـتقبلني الـبرودةُ المُنعشـةُ لمُكيـف الهـواء؛ أسـتقبل المواطنين لأنهـي لهـم أوراقهـم؛ أعتـذرُ لهـم أن أوراقهـم سـتتأخرُ بضـعَ دقائـق وأطلـب لهـم

مشروبًا ساخنًا اعتذارًا عن التأخير، يبتسمون لي قائلين لا داعي كان الله في عونكم نحن الذين أزعجناكم.

أنتهي من عملي في الوقت المُحدد، وأستقل عربتي ويُكمل وجيه عزيز أغنيته الرائعة:

«من حقنا نحلم

نحلم حتى في سكات ونشوف حاجات حاجات

مثلا الناس سعيدة

وشاطرة مش بليدة

وقريبة وبعيدة بتحضن بعضها

مثلا مافيش جراح

والخنقة بقت براح

وأنا لو تعبت أرتاح في حضن قلبها»

أعودُ إلى منزلي الحبيب؛ منزل صغير من طابقين بحديقةٍ صغيرةٍ يُخصم قسطه من راتبي الشهري، أتناول طعامي الشهي وأفتح التلفزيون لأجدَ النشرة الاقتصادية اليومية.

«رفع المرتبات بنسبة ١٠٠٪ بدءًا من الشهر القادم»

مرة أخرى؟ ألم ترفعها الحكومة منذ ستة أشهر؟ يجب أن يُوفروا تلك الأموال لمشاريع جديدة؛ لستُ مع هذا التبذير، نحن لا نريد أكثر ولا أفضل من تلك الحياة التي يعيشها شعبنا، رفاهية في كل شيء، كل شيء متوافر وبكثرة، الطعام والشراب أسعارهما في متناول يد الجميع، الشوارع واسعة ونظيفة حتى إن في أوقات الذروة تشعر أن الشوارع خالية؛ جميعنا نركبُ أحدث السيارات، جميع خدمات

المصالح الحكومية سهلة وبسيطة الإجراءات، نسبة الجريمة أصبحت تقتربُ من الصفر، مدارسُنا أصبحت لا تقل شيئًا عن الدول المتقدمة في الأبنية وجودة التعليم، مستشفياتنا الحكومية بها أفضل الأجهزة المتقدمة وأفضل خدمة طبية، الشعب كله يعيشُ في سعادةٍ وسرورٍ ويحب بعضه بعضًا، كل هذا بفضلِ مجهوداتِ وزارة السعادة التي لا تكل ولا تمل ويبذل أعضاؤها أقصى مجهوداتهم حتى ينشروا السعادة وسط أبناء الشعب.

أنامُ لأستيقظ مبكرًا للذهاب إلى عملي؛ أشربُ فنجان القهوة الساخن اللذيذ وأرتدي ملابسي وأنزل إلى الشارعِ، أعبرُ إلى الجهة الأخرى لأستقل عربتي تأتي سيارةٌ مسرعةٌ تصدمني وتصدم رأسي بأسفلت الشارع ولا أشعر بشيء بعدها.

أستيقظ لأجدَ نفسي في غرفةٍ تبدو أنها في مستشفى ما؛ ولكنها غرفة دهانها متساقط بها أسرة متهالكة تُعطي صوت صرير مزعجًا كلما تحرك أحدُ المرضى المُكدسين معي في نفس الغرفة، لا أظن أن ذلك المستشفى في بلدنا، أين أنا إذن؟

يدخلُ على طبيبٍ شاب أسأله عن حالتي. إصابتك شديدة أدت إلى ضمورٍ في جزءٍ من مخك، ولكنه لن يؤثرَ على حياتك الطبيعية تحتاج فقط إلى راحةٍ تامة عدة أيام.

يكتبُ لي الطبيب على إذن خروج، انزل إلى الشارع تُصيبني صدمة أخرى، الشوارع ضيقة مليئة بالقمامة والأتربة، زحامٌ شديدٌ لا يُطاق وجو حار رطب، أشاور لتاكسي متهالك وأصف له عنوان منزلي، يُنزلني في مكانٍ آخر تمامًا، ليس هذا منزلي ولا هذا شارعي، هذا شارعٌ ضيق أقرب إلى الحارة ومنزل متواضع من الطوب الأحمر، أمتأكد أنت

من العنوان؟ نعم متأكد أنظر إلى اللافتة ورقم العمارة. اللافتة مكتوب عليها فعلًا اسم الشارع الذي أسكن فيه وهو هو رقم العمارة.

المفتاح يفتح الباب، إذن هي شقتي، ماذا يحدث لي؟ هل أصابني ذلك الحادث بهلاوس أم ماذا.

أفتح الثلاجة القديمة لأجدَ بضع قطع من الجبن الأبيض وبعضًا من الفول، الثلاجة كانت مليئةً باللحوم والدجاج، أين ذهبوا؟ أتناول عشائي البسيط في صمتٍ وأستغرقُ في النوم على سريري الضيق الخشن.

أنزل إلى عملي أبحثُ عن سيارتي لا أجدها؛ أتذكر أني أوقفتها مكان تلك السيارة الصغيرة القديمة، ما هذا؟ إنها تحملُ نفس الأرقام، إنها هي سيارتي، أستقلها إلى عملي فينطلق صوت وجيه عزيز وهو يُغني ناقص حتة:

«وكل ما أوزن ألاقي لسه ناقصلي حتة

أحط حتة.. تقل حتة..

أجيب قميص تضيع جاكتة

وأعيشلي ساعة يفوتني ستة»

لا أجد هذا المبنى الفخم الزجاجي؛ أجدُ مبنى قديمًا طلاؤه أصفر كئيب، سلالمه مكسرة أصعد عليها بحذرٍ حتى لا أسقط، حرٌّ شديدٌ ولا تُوجد مروحة واحدة تعمل.

«وحاجات تسيبني وحاجات تاخدني لحاجات تخبط في كل حتة

وأقول هنفرح.. في يوم هنفرح..

ويوم ما نفرح

على الله يفضل في القلب حتة»

أجدُ الجميع لا يزالون يبتسمون لبعضهم البعض، علام تبتسمون أيها الحمقى، أنتم لا تعيشون الحياة التي تعيشونها، تحيون حياةً أخرى خادعةً، هذا ليس الواقع، واقعكم صادمٌ، كيف لا ترونه، لم أعد أعرف الصوابَ من الخطأ، واقعي أنا أم واقعكم أنتم، هل الحادث جعلني أرى الواقع الصحيح الكريه أم واقعًا وهميًّا وهلاوس، هل الشوارع واسعةٌ ونظيفةٌ والمباني جميلة والمستشفيات حديثة وكل شيء جميل أم أن العكس هو الصحيح، أي واقعٍ نعيش فيه؟ واقعي أم واقعهم؟ لا يُمكن أن أكون الوحيد على صوابٍ والجميع على خطأ.

أتحدثُ مع زملائي عما يحدثُ لي؛ ينظرون إليَّ كمن ينظر إلى مجنونٍ مُختل؛ أنا أعيشُ واقعًا غيركم، تلك الكراسي التي ترونها فخمةً منجدةً بالجلد هي كراسي خشبية متهالكة، تلك التكييفات المنتشرة هي مراوح لا تعمل، كل شيء ترونه أرى عكسه. تستمر نظراتُ السخرية فأنفعل أكثر ويعلو صوتي حتى يتجمع جميع الموظفين ويأخذني بعضهم إلى مكتبٍ جانبي ليهدئوني، أفقد الأمل تمامًا في إقناعهم فأعود أجر أذيال الخيبة إلى منزلي.

أفتحُ مواقع التواصل الاجتماعي فأجد مفاجأةً، لا همَّ لهم سواي، صوَّرني أحدُهم صباحًا بكاميرا هاتفه المحمول ووضع الفيديو على الإنترنت، حاز الفيديو على ملايين المشاهدات في ساعاتٍ معدودةٍ وأصبح الجميع يتكلم عنه، آلاف التعليقات التي تنعتني بالجنون وعشرات تتساءل عما إذا كان من الممكن أن يكون ما أقوله صحيحًا، أصبح حديث المدينة لعدة أيامٍ تاليةٍ.

يأتي موعدُ الاستشارة المُحدد لإجراء فحوصاتٍ جديدةٍ على المخ؛

أذهب في وسط الزحام والأتربة إلى المستشفى الحكومي القميء؛ أقابل الطبيب المُعالج ويطمئنني على حالتي، أخرج ويُقابلني ظلام أول الليل، ظلام يلف المكان، أعمدة الإنارة أغلبها مطفأ، تقف سيارة دفع رباعي كبيرة أمامي وينزل منها رجلان شديدان كأبطال كمال الأجسام يُمسكان بي ويُلقيان بي داخل السيارة التي تنطلق بعيدًا.

أعود إلى شقتي فأجدهم هناك، إنهم هم فعلًا، أبتلع ريقي بصعوبةٍ، قواتُ مكافحة الأحزان المدججون بالسلاح بزيهم المميز التابعون لوزارة السعادة، معروفٌ عنهم صرامتهم وشدتهم وعنفهم، أُحدق في وجوه الموجودين حتى أتوقف عندها، وزيرة السعادة بنفسها بملامحها الجادة المتجهمة تجلس أمامي. وزيرة السعادة صاحبة ثاني أقوى منصب في الدولة، من يعمل معها يصبح له نفوذٌ واسعٌ.

– ماذا بك؟ تنطقها الوزيرة بنبرةٍ حادةٍ تُوقف الدم في عروقي.

– لا شيء.

– ماذا تعني بلا شيء، تهورك وضعنا في موقف سيئ وأحدث بلبلةً في البلد وتأتي وتقول لي لا شيء، أخبرني بكل ما حدث لك وإلا...

نبرتُها المُهددة جعلت رجالها يُصوبون أسلحتهم نحوي تلقائيًّا.

– حدث لي حادثٌ أثر على مخي ومن بعدها أصبحتُ أرى واقعًا مُغايرًا لما كنت أعيشُ فيه، فقررت أن أنبه الناس وأحذرهم من الزيف الذي يعيشون فيه، هم كمدمني المخدرات مغيبون ويجب أن يفيقوا من أوهامهم.

– وماذا ستستفيد أنت وهم من هذا؟ اتركهم يعيشون في سعادةٍ بعيدًا عن واقعهم المرير، إذا رأوا ما رأيتُ ماذا سيجنون؟ أنت لم

تتحملـه عـدة أيـام، دعهـم في سـعادتهم الزائفـة التـي لـن يجدوهـا مـرةً أخـرى إذا فقدوهـا.

– خدعتونـا جميعًـا بالأوهـام، نحيـا وهمًـا كبـيرًا بسـبب فشـلكم في إسـعادنا وخوفكـم عـلى مناصبكـم الزائلـة.

تنظر لي نظرةً قاسيةً تُخرس كلماتي.

– نحـن لسـنا هنـا للنقـاش، سـتأتي معنـا إلى مبنـى التلفزيـون وتخـرج عـلى النـاس تُخبرهـم أن هـذا الفيديـو مُفبرك وليس لـه أسـاسٌ مـن الصحة وأنـك تشـعر بالسـعادة مثلهـم تمامًـا.

– والمقابل؟

– قُل ماذا تريد!

– يفتـح حسـابًا لي في الخـارج بقيمـة عـشرة ملايـين دولار ووظيفـة عندكـم في وزارة السـعادة يكـون لي كل مميزاتكـم ونفوذكـم وسـلطاتكم.

– الحسـاب لا مشـكلة فيـه، أمـا وظيفتـك فسـيتم وضعـك تحـت الاختبـار والمراقبـة أولًا قبـل تعيينـك.

أثبـت إخـلاصي وكفـاءتي في عمـلي حتـى إننـي ترقيـتُ أسرع مـن زملائـي جميعًـا الذيـن مـلأ الحقـد قلوبهـم عـلى المناصـب والمكانـة التـي حزتهـا في الـوزارة، في غضـون ثـلاث سـنوات أصبـح مـن أهـم أربعـة أفـراد في الـوزارة مـن المسـموح لهـم رؤيـة الجهـاز.

أمـشي في طرقـات الـوزارة أدخـل مـن ممرٍّ إلى دهليزٍ إلى ممـر حتـى أظـن أن الطريـق لـن ينتهـي حتـى أصـل إلى الغرفـة الموعـودة؛ أضـع الـكارت في البـاب فيفتـح لأجـده أمامـي، أخـيرًا وصلـت إليـك، أنـت الـذي تفعـل فينـا كل تلـك الأفاعيـل؟ أتذكـر حـواري مـع الذيـن خطفـوني مـن أمـام

المستشفى وأخذوني إلى مكانٍ مجهولٍ.

مَن أنتم؟ ماذا تُريدون مني؟

اهدأ اهدأ، اطمئن نحن معك لا عليك؛ نحن نرى واقعك أيضًا، ما تراه هو الحقيقة والباقي أوهام، كل هذا من فعل الجهاز الذي يكتمون عليه كتمانًا شديدًا ولا يسمحون إلا لقلائل يُعدون على أصابع اليد الواحدة من رؤيته؛ جهاز يُرسل موجاتٍ كهرومغناطيسية بتردد مُعين يستقبلها أحد أجزاء المخ البشري فتقوم بدورٍ شبيهٍ بالتنويم المغناطيسي، يقنع المخ بما يريدون، فيقنعوننا أننا أجمل بلد وأسعد شعب في العالم، بعد حادثك أصيب جزءٌ من المخ المستقبل لتلك الموجات فانقشع عن ذهنك الوهم ورأيت الحقيقة؛ حدث هذا لكثيرين غيرك أصيبوا في حوادث والبعض خلقهم الله بدون تلك المستقبلات، وكلما نعلم عن أحدٍ مثلنا نذهب إليه لتجنيده لينضم لنا في تنظيمنا السري الذي يسعى لتدمير هذا الجهاز الغامض.

ولماذا تُريدون تدميره؟

حتى نقضي على الأوهام، كيف يحيا الإنسان حياةً أخرى غير حياته؟ كيف نحيا حياة القطيع الذي يتحكم فيه راعيه بلا تفكيرٍ ولا وعي؟ لماذا لا نشقى ونتعب حتى نجعل بلدنا في مصاف الدول المتقدمة حقيقة لا وهمًا وزيفًا. طالما نحيا في الأوهام سنظل على حالنا. يجب أن نعملَ على رفعة وتقدم بلدنا بمجهودنا وعِرقنا لا بسعادتهم الزائفة.

جاءت اللحظة التي نُخطط لها منذ سنواتٍ. أثبت القنبلة على الجهاز وأبتعد عنه وأمسك جهاز التفجير وأضع إصبعي على الزر.

تتصارع الأفكارُ في رأسي.

«من حقنا نحلم ولو كده وكده»

كيف نحيا حياة القطيع؟
اتركهم يعيشون في سعادةٍ بعيدًا عن واقعهم المرير.
«ونشوف الدنيا حلوة مع إنها مش كده»
إذا رأوا ما رأيت ماذا سيجنون؟
طالما نحيا في الأوهام سنظل على حالنا.
«وطن مالوش مثيل في الدنيا كلها»
واضغط على الزر....

❊ ❊ ❊

سُوق الحلاوة

هيا هيا، السوق جبر.

قالها كبيرُ النخاسين وهو يُنهي آخر يوم في سوق الجواري الحسان، معروف عنه ذوقه الراقي في اختيار الجواري وأثمانه الغالية، يظل يُعزز في بضاعته ليحظى بأغلى الأسعار.

- ماذا تعني السوق جبر؟ وماذا عني أنا؟ ماذا سيكون مصيري؟

ردت عليه ورد بحرقةٍ وغصة في حلقها، حسناء الحسناوات، أحلى وأغلى جارية تخلب الألباب وتسرق القلوب من نظرةٍ واحدةٍ من عينيها الواسعتين الزرقاوين كالسماء الصافية وشفتيها المكتنزتين اللتين تدعوان الجميع لتذوق حلاوتهما.

- لِمَ لم تبعني لأتخلص من عذاب الترحال معك ومعاملتك السيئة؟ تعذبني بقيودٍ لا تنفك لشهورٍ وتحرمني من الطعام لأيام لتوفر ثمن وجباتي وقد طلبني كثيرون بأسعارٍ أعلى من جميع الجواري وأنت ترفض وتغالي في ثمني، اتركني لأتخلص من هذا العذاب الدائم.

- ماذا عنك؟ ستظلين معي للموسم القادم، أتظنين أنني سأفرط

فيكِ بأبخس الأسعار، لقد دفعتُ فيكِ مبالغ طائلة لصاحب بيت الدعارة الذي كنتِ تعملين فيه؛ قال إنه سيخسر زبائن كثيرين إذا باعك ولن أقبل إلا بأضعاف ما دفعت له من الأرباح؛ أنت بضاعةٌ لا يجود القدر بها كل يوم، فرصة سانحة للثراء ولن أتنازل عنها أبدًا.

- جرِّب إذن تلك القرية الأخيرة لعل خلاصي يكون هناك!

الدمامنة؟ أنت تمزحين؟ إنها أفقر قرية رأيتها في حياتي، لا يملكُ أهلها قوت يومهم، لو اجتمعوا جميعًا لن يجدوا نصف ثمنك.

- الدمامنة؟ ما هذا الاسم الغريب؟

- اسم غريب فعلًا ولكن على مُسمَّى؛ فأهلها يملكون من الدمامة ما يكفي العالم كله، كأن الجمال وصل لأطراف قريتهم ومات هناك؛ لم يدخلها بائعون منذ سنوات طوال، والآن اخلدي إلى النوم، أمامنا رحلة عودة طويلة غدًا.

رقدت ورد إلى خيمتها الضيقة شديدة الحرارة ولم تكف عن البكاء؛ كانت تمني نفسها بالخلاص من هذا النخاس القاسي إلى أي مكانٍ، لن ترى هذا العذاب الذي تُقاسيه معه في أي مكانٍ آخر.

في وسط نهنهاتها المتقطعة سمعت صوت خشخشة الأشجار حولها؛ توقفت عن البكاء واستمعت في حذرٍ فزاد الصوتُ، مدَّت رأسها المقيد إلى عمود الخيمة بحبالٍ قاسيةٍ لتُحاول معرفة مصدر الصوت فرأته؛ شاب صغيرٌ في السابعة عشرة من عمره اقتحم الخيمة ووضع كفه على فمها ليكتم صراخها، رأت ملامحه في ضوءِ القمر بدرًا، أصابها رعبٌ شديدٌ، أقبح وجه رأته في حياتها؛ وجه مليء

بالندوب وعينان شديدتا الضيق تكادان لا تظهران وأنف كبير استولى على نصف وجهه وفم ذو شفة عليا رفيعة جدًّا وشفة سفلية ضخمة شديدة الغلاظة وأذنان مدببتان: واحدة كبيرة والأخرى صغيرة.

أمسك الشاب بورد ورفعها على كتفيه بعد أن قطع قيودها بسكينه الحادة، ووضع غمامةً سوداء على عينيْها الجميلتيْن وانطلق بسرعةٍ نحو قرية الدمامنة.

فتحت ورد عينيْها بصعوبةٍ بعد إزالة الغمامة؛ لم تتبين الحاضرين جيدًا حتى اعتادت عيناها على الضوء.. عشرات من الرجال والنساء في دائرةٍ كبيرةٍ حولها ولمحت خاطفها وسطهم، كان نخاسها مُحقًّا عندما وصفهم بالدمامة، كانوا شديدي القبح رجالًا ونساءً حتى إن خاطفها التي كانت تظن أنه لا يُوجد أقبح منه كان أجمل الموجودين، كان يُوسفهم.

نظروا كلهم إلى الشاب الخاطف موجهين حديثهم إليه:

– أتمزح معنا يا جمال؟ أتلك القبيحة الماثلة أمامنا هي مَن وصلت أخبارها لنا طوال الشهور الماضية أنها أجمل نساء الكون؟

نظرت ورد حولها لترى عمن يتحدثون فلم تجد غيرها بينهم، اندهشت من حديثهم، أيصمونها بالقبح؟ ألم ينظروا إلى أنفسهم في المرايا؟

– نعم إنها هي؛ وقد نفذت أوامركم وجئت بها إليكم، فماذا أنتم فاعلون؟

– سنأخذها إلى منزل كبير القرية وأنت ستحصل على مكافأتك الموعودة.

دخلت ورد إلى منزل كبير القرية المتواضع المكون من طابقين، قابلها جميل حسان بترحابٍ بالغٍ وأجلسها بجانبه وطلب من رفقائه أن يتركوهم وحدهم.

- ماذا تريدون مني؟

- لا شيء.

- ماذا تعني بلا شيء، لماذا خطفتموني إذن؟

- اعتبريها استضافة لا خطفًا؛ ألستِ سعيدةً أنك تخلصتِ من ظلم وتعذيب كبير النخاسين؟ نحن نعلم كل شيء عن هذا الفاجر، مجيئك إلى هنا كان انتقامًا منه، لقد خطف كثيرين من قبل من بنات قريتنا، معدومات الجمال مثلك ليبيعهن في تجارته الآثمة، كنا نتعجب لاختياره أقبح بناتنا ليخطفهن ويترك جميلاتنا، فسمعنا عنك وعن اهتمامه بكِ وأنه يعتبرك أغلى بضاعة عنده فانتقمنا منه في شخصك وخلصناكِ من معاملته السيئة لكِ؛ سنستضيفك عندنا بعض الوقت لنثير جنونه وبعدها نترك لك حرية الاختيار أن تمكثي معنا أو ترحلي حرةً طليقةً.

جلست ورد في منزلها ذي الطابق الواحد تُفكر فيما قاله لها جميل حسان كبير القرية، منزل بسيط ولكن أعطاها إحساسًا بالدفء والراحة ما أن خطت داخله.

جاءت لها بنتٌ صغيرةٌ لها نفس ملامحهم القبيحة ولكن ابتسامتها التي ملأت وجهها جعلتها تقتحم قلب ورد في الحال بدون استئذانٍ؛ كانت تُمسك صينيةً مليئةً بالطعام، بسيط ولكن مذاقه في فمها كان كالشَّهد وشعرت أنها لم تأكل بتلك الشهية من قبل.

انتظرتها الفتاة حتى فرغت من طعامها وقالت لها إن دولاب

الغرفة به ملابس جديدة لها وإذا احتاجت أي شيء فلتنادي عليها فهي المسئولة عن خدمتها وتلبية رغبات ضيفتهم العزيزة، لاحظت ورد عدم وجود أي مرايا في المنزل.

- بِمَ أناديكِ يا صغيرتي؟

- جميلة، اسمي جميلة.

- أأنا سجينة هذا المنزل يا جميلة؟

- سجينة؟ حاشا لله، أنت ضيفةٌ عند قريتنا كلها، اعتبري جميع بيوت القرية بيتك، لك أن تخرجي وتذهبي إلى أي مكان تشائين على أن أصاحبك في نزهاتك في القرية، اخلدي إلى الراحة وبعدها سآخذك في جولةٍ في القرية، أنا متأكدة أنك ستحبينها جدًّا.

ذهبت ورد وجميلة يتجولان في أنحاء القرية، ابتساماتُ أهلها الطيبين تُحاصرها في كل مكانٍ، بدأت تعتاد على قبحهم خاصة مع ترحابهم الشديد لها أينما ذهبت حتى إنها بدأت تشعرُ أنها هي المختلفة؛ إن ملامحها هي الغريبة وليست ملامحهم، كل من يُقابلها يريد أن يفعل لها أي شيء؛ الأطفال يشيرون إليها بفرحةٍ؛ الرجال يوسعون لها الطريق في حياءٍ؛ النساء يهدينها ورودًا ذات رائحةٍ نفاذةٍ ويطلبون منها أن تأتي لبيوتهم ليستضيفوها رغم فقرهم البادي عليهم.

- لم أر كل تلك الطيبة من قبل يا جميلة، ألا يوجد أشرارٌ بينكم؟

- بالطبع يوجد ولكنهم يذوبون وسطنا، كنقطة حبر في يمٍّ واسعٍ؛ لا يستطيعون الصمود كثيرًا، يعيشون على أطراف القرية كالمنبوذين.

- ولكن... ممم.... شكلكم مختلفٌ يا جميلة عن كل مَن رأيت من قبل؛ وقد لاحظت أنه لا يوجد مرايا عندكم.

– نحن فعلًا نختلف عنك، فنحن لا نتزوج سوى من بعضنا البعض ولكن دمام.... آسفة.. أقصد قلة جمالك لم ولن تكون أبدًا عائقًا في احتوائنا لك وسطنا؛ أما المرايا فلا حاجة لنا بها، شعورُ الشخص منا بجماله لا يحتاج لمرآة، أنت مَن تُقررين أن تكوني جميلة أو قبيحة، وجمال وجهك في المرآة لن يُخفي قبح داخلك أبدًا، فكل إناء ينضح بما فيه، فلو كانت المرايا نرى فيها دواخلنا فكثيرون لن يتحملوا رؤية أنفسهم.

– أنت على حق يا جميلة، رغم صغر سنك فإن فمك لا ينطق إلا بالحكمة.

أكملا جولتهما لتصعدا جسرًا صغيرًا يمر فوق بحيرةٍ وسط القرية؛ فجأةً سمعتا صوت صراخٍ ونحيبٍ، جرتا نحو مصدر الصوت وجدتا امرأةً تشير نحو طفلةٍ صغيرةٍ تُصارع الغرق في البحيرة، بدون تفكيرٍ تقفز ورد في المياه وتسبح في رشاقةٍ نحو الطفلة وتُمسك بها وتُخرجها من البحيرة؛ يتجمع أهلُ القرية ليقدموا شكرهم لورد على إنقاذها للطفلة التي بدأت تفيق من صدمتها ناظرةً لورد نظرةً حانيةً لن تنساها أبدًا.

أصبحت ورد معشوقة أهل القرية، تقيم لهم ليالي سمرٍ تطربهم فيها بصوتها الناعم العذب الذي يملأ الدنيا فرحةً وبهجةً؛ تُعلم القليل مما تعلمه من القراءة والكتابة لمن لا يُجيدهما، تنسج لأطفالهم ملابس جديدة تهديها إليهم وتحكي لهم حكاياتٍ خياليةً يسمعونها لأول مرة.

عاشت ورد مع الدمامنة شهورًا عديدةً حتى أصبحت تشعر أنها

واحدةٌ منهم، لم تعد ترى سوى جمالهم وطيبتهم، حتى ملامحهم كأنها تبدلت في تلك الشهور، لم تعد ترى قبحًا قط فيهم.

جاء وقتُ تخييرها للبقاء بينهم أو تركهم إلى حيث تريد؛ ذهبت إلى منزل كبير القرية جميل حسان تصحبها جميلة، ما أن دخلت المنزل حتى سمعت صوت هرج ومرج شديد في الخارج، أدخلوها بقوةٍ وأغلقوا الأبواب.

- يا كبير يا كبير، كبير النخاسين هجم على القرية مع عصابته مدججين بالأسلحة يبحثون عن ورد في كل مكانٍ.

- بعد إذنك يا كبير؛ أنا قضيتُ أجمل وأسعد أيام حياتي هنا معكم، لم أشعر بالراحة والطمأنينة سوى وسطكم، كأني وسط أهلي الذين لم أرهم، كل سواد كان في قلبي من ذنوبي السابقة اختفى تدريجيًّا حتى أصبحتُ أشعر أنني وُلدت هنا وصفحتي بيضاء ولم أقض يومًا واحدًا بعيدًا عنكم، فاسمح لي ألا أقابل إحسانكم إليَّ سوى بإحسانٍ لكم، ائذن لي أن أخرج إلى هذا الجبار الفاجر وأذهب معه حتى لا يعيث في قريتكم فسادًا لا يعلم أحدٌ سوى الله مداه.

- ولكن يا ورد أنت ضيفتنا ونحن لا نسلم ضيوفنا لمن يهينونهم.

- أنا أعلم كل هذا ولكن أن يُجرح أو يُقتل أحدٌ منكم بسببي شيء لن أحتمله أبدًا؛ سأظل أحيا بذنبهم طوال عمري وأنا أخيرًا أصبحت بنقاء وصفاء في قلبي لا مثيل له وأنا أعلم هذا النخاس جيدًا، لن يهدأ له بالٌ حتى يسترجع بضاعته الغالية حتى لو قتلكم جميعًا، فليسترجعها بدون قتالٍ إذن، إذا كنت ضيفتكم فلتنفذوا لي طلبي الأخير أرجوكم.

خرجتْ ورد من بيت كبير القرية متجهةً إلى كبير النخاسين، ما أن خرجتْ حتى وجدت كفًّا صغيرةً رقيقةً تمتد إليها؛ إنها الطفلة الصغيرة التي أنقذتها ورد من الغرق دموعها تنسابُ على خديها.. تتركها وتُكمل طريقها تجد أطفال القرية جميعهم يمدون أيديهم لها باكين وهم ينظرون إليها بعطفٍ شديدٍ؛ تدمع عينا ورد بشدةٍ وتستكمل مسيرتها، كلما مرَّت على منزل تجد أهله يخرجون منه، حتى تخرج القرية عن بكرة أبيها تمشي بجانبها.

توقفوا، توقفوا، أنا لا أستحق تضحياتكم، أنتم من جعل لحياتي معنى، أنا سأذهب معه لتحيوا في سكينتكم.

لا يسمع أحدٌ لها، يسيرون بجانب بعضهم البعض في صفٍّ كأنه بنيانٌ مرصوصٌ كل منهم يُمسك بكل ما يملك من حطام الدنيا، حلي زوجاتهم البسيطة، ماشيتهم النحيلة، ما يُخزنونه من غدر الزمان من طعام، يصلون إلى النخاس ويُلقي كل منهم ما معه أمامه ويقفون في سدٍّ منيعٍ بين ورد وبينه وينظرون إليه نظرة إصرارٍ وتصميمٍ ألا يُسلموا ورد زارعين الخوف في نفوس العصابة رغم إشهارهم لسيوفهم في وجوه الأهالي الطيبين.

– ها أنا ذا، خذني معك واتركهم في حالهم، هيا فلنذهب في سلام!

–مَن أنت؟ ابتعدي من أمامي أنا أبحث عن ورد!

– ماذا تعني بمن أنا، أنا ورد.

بدت الدهشةُ على وجهه، إنه صوتها ولكنها ليست هي، وجهها يحمل ملامحهم القبيحة في نظره.

– هيا بنا، فلنترك تلك القرية الملعونة، لقد اختفت ورد نهائيًّا، لن نجدها أبدًا.

انسحبوا تاركين غبار خيولهم يُحيط بورد ومن معها وكلام كبيرهم يرن في أذنيها، جرت إلى البحيرة الصغيرة في وسط القرية ونظرت إلى صفحة الماء الصافية لتجد وجهًا غير وجهها، أصبحت تشبههم، أصبحت جميلة مثلهم، أصبحت أخيرًا من الدمامنة.

❋❋❋

أحزانٌ ذهبيةٌ

تُوفي والداه وأودعه عمه دارًا للأيتام وعمره لا يتجاوز العامين؛ كان طفلًا منطويًا لا يعرف المرح والمزاح كأقرانه في الملجأ حتى كبروا وهم لا يُبادلونه مشاعر طيبة كالتي يهديها هو لكل من حوله، فهو الطفل الخجول المنطوي ضعيف البنية الذي ينال القسط الأعظم من سخريتهم وضربهم؛ أصبح بكاؤه الدائم هو سمته وسطهم، تجرحه سخريتهم أكثر من ضربهم، يشعر أن روحه مليئةٌ بالندوب التي لا تشفى.

في أحد الأيام تغيرت دموعه، اكتشفها المشرف الاجتماعي في الملجأ الذي كان الوحيد الذي يشعر به ويهون عليه حياته، جاءه يبكي كالمعتاد بعد وصلة سخرية زادت جرعتها تلك المرة وعلقة ساخنة من أقرانه فلاحظ بريق دموعه، مدَّ يده ليمسحها فسقطت إحداها على الأرض مُحدثة صوت رنين محبب؛ إنه لا يتخيل ولم تُصب عيناه بخللٍ إذن، يلتقطها مِن على الأرض وينظر إلى الدموع الذهبية بدهشةٍ شديدةٍ، يجمع دموعه ويذهب إلى الجواهرجي القريب من محل سكنه

ويؤكد له أنها ذهب قيراط أربعة وعشرين، يا للهول، إنها فرصته التي لن تُعوض.

حتى أنيسه وجليسه الوحيد تأمر عليه، أصبح بوجهين معه، وجه يأمر الأولاد في الملجأ أن يُكثروا من السخرية والضرب وإلا منع عنهم وجباتهم ووجه مليء بالحنان المزيف يربت على كتفه ويمسح دموعه جامعًا لها عندما يأتي له شاكيًا، ظل الوضعُ هكذا لشهورٍ حتى اختفى هذا المشرف القاسي وقيل إنه أصبح من قاطني القصور والسيارات الفارهة وصاحب أموال طائلة لم يعلم أحدٌ مصدرها.

ما أن رأى عمه في إحدى الزيارات النادرة له في الملجأ حتى أجهش بالبكاء شوقًا له، كان ليلتها يبيت في بيت عمه بعد أن أخذه من الملجأ طامعًا في دموعه، وبالطبع استمرت المعاملة السيئة جلبًا للدموع من عمه وأولاده.

هرب من بيت عمه إلى لا مكان؛ لم يكن لديه مأوى آخر فكان الشارع ملجأه وملاذه، تحسنت أحواله بعض الشيء حين تعرَّف على بعض أطفال الشوارع الذين شعروا بمعاناته وابتلعوه وسطهم، خاصة واحدة انجذب لها كثيرًا منذ أن رآها، شعر بحنانها دون أن تتحدث، أصبحت هي المقربة له يتحدثون معًا دائمًا ليُهونوا حيواتهم؛ حتى جاء اليوم الذي حكى لها قصته منذ صغره حتى هرب من عمه منفجرًا في البكاء، انهمر الذهب من عينيه كشلال مياهٍ غزيرٍ ينتظر من يجمعه، منذ ذلك الحين تغيرت معاملة الأولاد له، أسوأ معاملة يتلقاها منهم، يبكي ناظرًا لها فيجدها تنظر إليه بسخريةٍ وهي تضحكُ ملء فِيهَا.

ظهرت له في إحدى الليالي المقمرة، حسناء ذات عينيْن واسعتيْن فاتنة ترتدي فستانًا مبهجًا فاردة جناحيْها وتمسك بعصاها السحرية تطير حوله وتحط على كفه الشاب.

- مَن أنت؟

- أنا حورية الأحزان، مهمتي القضاء على الأحزان.

- القضاء على الأحزان؟ ولِمَ تركتِ الأحزان منذ صغري تنهشُ في روحي.

- أنا نفذت لك أمنيتك التي طلبتها ولكنها لم تنجح.

- أي أمنية؟

- في إحدى المرات التي كنتَ تبكي فيها بحُرقة تمنيت أن تُصبح دموعك غاليةً على الناس.

- فجعلتيها من الذهب وزودتِ بؤسي؟! أنت من دمرتِ حياتي وجعلتِ حتى القلائل الذين كانوا يُعطونني بعضًا من حنانهم يطمعون حتى في أحزاني.

- لم أكن أقصد هذا، كنتُ حسنة النية في تنفيذ أمنيتك، لم أكن أتخيل أن يصلَ طمعُ الناس أن يبنوا سعادتهم وثراءهم على أطلال دموع وأحزان طفلٍ ضعيفٍ مسكينٍ مثلك، لِمَ لم تجمع دموعك الذهبية لنفسك وتصبح من الأثرياء؟

- لأنه يبدو أنك نفذتِ أمنيتي بحذافيرها، عندما أبكي وحدي أبكي دموعًا عادية، لا تتحول لذهب إلا أمام الناس.

- أنا آسفة؛ كنتُ أقصد إسعادك فانقلب السحر على الساحر.

– أريدك أن تعوضيني عما فعلتيه بي.

– تعويض؟ أنا كنت أحاول مساعدتك و....

أمسك بها وضغط عليها بقوةٍ فتأوهت بين يديه.

– أتتألمون أيضًا مثلنا؟ أريني دموعك إذن، لن أتركك إلا لو نفذتِ طلبي.

– ماذا، ماذا تريد؟ اتركني!

– أريد للدموع أن تختفي من العالم.

– ماذا تعني؟ ما ذنب العالم كله؟

– هذا العالم الذي ظلمني ولم يأبه لدموعي ولا لأحزاني يجب أن يأخذ جزاءه، لم يهتم أو يتحرك أحدٌ من أجلي بل بالعكس استغلوا سخافتك في تحقيق أمنيتي البريئة لزيادة بؤسي وعذابي، فلم آبه بهم قساة القلوب؟ هل ستنفذين أم أزيد ضغطي عليكِ؟

– اااااه، سأنفذ سأنفذ.

لا أصدق ما حدث حتى الآن، استيقظت على صراخٍ ونواحٍ من أمي وأختي، استيقظت غير مُدركة ما يحدث وصعدت سلالم الفيلا راكضة نحو مصدر الصوت، وجدتهم يصرخون بحرقةٍ لأن أبي مات، مات؟ كان لا يزال يتناول عشاءه معنا منذ ساعاتٍ وكان يقول لنا إنه سيشتاق إلينا كثيرًا عندما تنتهي إجازته خلال أيام ويعود إلى عمله في الخارج، نحن الذين سنشتاق إليك يا أبي إلى الأبدِ؛ أشعر أنني أريد أن أبكي بحُرقة لتنهمر دموعي فتخفف عني أحزاني، ولكن ما هذا؟ أنا لم أذرف دمعةً واحدةً منذ علمت بخبر وفاته. ألهذا الحد بُعده

عنا طوال تلك السنوات جعلني قاسية القلب نحوه هكذا؟ لم أره في حياتي كلها سوى عدة أشهر، شهر إجازته السنوية يأتي ليقضيه معنا هنا وأحيانا تختصر إلى أسبوعين أو ثلاثة أسابيع في السنة إذا اقتضت ظروف عمله ذلك.

طلبنا منه كثيرًا أن يترك عمله ويستقر معنا هنا فلقد أصبحت لدينا أموالٌ تكفي لحياةٍ ميسورةٍ بقية حياتنا وكان الرفض هو رده الدائم؛ أصبح كالطير المهاجر لا يستطيع الاستقرار تاركًا زوجته وبناته بلا وتدٍ أو سندٍ يستندون عليه في حياتهم، كان المال هو سندنا، أصبح بالنسبة لنا ماكينة ATM نشتاق لأمواله لا لحنانه، حتى الفترة التي يقضيها معنا تتغير حياتنا ولا نشعر بالراحة، كأن رجلًا غريبًا يقضي معنا بضعة أيام وسيرحل لتعود حياتنا إلى طبيعتها، ماذا استفدت أنت أو نحن مما فعلت بنا إلا أن ابنتك التي من صلبك لا تستطيع أن تبكي لفراقك؟

لم يرجع سي محمد بعدُ من العمل والأولاد لا يتوقفون عن الصراخ من الجوع، لماذا تأخر لا توجد لقمة واحدة في البيت تكسر جوعهم، قال لي إنه سيأتي ببعض الفول والجبن للعشاء، آه منك يا فقر، أصبحت كالوشم المدقوق على حياتنا لا نستطيع التخلص منك، حتى الأطفال المساكين لم ترحمهم، لا عزاء لي سوى دموعي التي أبكيها كل يوم وكل ليلة لتهون عليَّ أحزاني، لا أستطيع البكاء؟! حتى دموعي خذلتني وتركتني أصارع أحزاني وحدي. لا أبكي حتى على منظر أولادي وهم يتضورون جوعًا؟ ماذا فعلت في قلوبنا أيها الفقر.

أشعر أنه لا يزال يُوجد داخلي بذرة من خير رغم كثرة المعاصي فبعد تلك الكبيرة التي أفعلها أبكي من الدموع أنهارًا تغسل قلبي

من الذنوب، حينها أعاهد نفسي على ألا أعود لتلك المعصية أبدًا؛ ولكن نفسي الأمارة بالسوء وشيطاني الوسواس لا يتركاني في حالي أبدًا حتى أقع مرةً أخرى في المحظور، فأنا أحب زوجتي ولا أستطيع البعد عنها ولكني أخونها، خنتها عدة مراتٍ وأشعر بروحي تتآكل بعد كل مرة حتى أصبحتُ أشعر أن روحي أصبحت هشة قابلةً للكسر بسهولةٍ، لا يهون عليَّ سوى دموع التوبة التي أذرفها بعد كل مرةٍ، تلك الدموع التي حتى لا تريد أن تنزل من عيني تلك المرة بعد أن خنتها مع أعز صديقاتها، ألهذا الحد ملأت القسوة قلبي حتى إنني لا أندم ولا تنزل دموعي على تلك المعصية، كيف سأعيش معها ثانية وأنا أعلم أن خيانتها أصبحت سهلةً بلا ندم ولا توبة ولا دموع. لن أستطيع الحياة معها خائنًا قاسي القلب، لن أستطيع.

يدخل التمرجي مسرعًا إلى غرفة طبيب العيون الشهير ليجده يضع قطرة الدموع الصناعية في عينه.

يا دكتور المرضى يملأون المكان حتى إنهم يجلسون على السلالم في الخارج ويتشاجرون جميعًا يريدون أن يدخلوا أولًا؛ كلهم يُعانون من التهابات وآلام واحمرار في العين، ماذا أفعل الآن؟

تحوَّل العالم في أسابيع قليلة إلى غابةٍ يأكل القوي فيها الضعيف، تحجرت القلوب حتى كادت تتوقف عن ضخ الدماء، لم ينج إلا من رحم ربي، اختفت العواطف والأحاسيس بين الناس حتى الأقربين، يقتل الأخوة بعضهم من أجل الصراع على الميراث، قضايا الحَجر على الآباء ملأت المحاكم، طرد الأبناء أمهاتهم طمعًا في ذهبهم وشققهم، حتى الأمهات بعن أطفالهن من أجل الأموال، أصبح الغدر والخيانة يملآن الدنيا. انتشر الخراب والدمار في العالم بأسره.

جلس يقرأ القرآن خاشعًا رغم توقف دموعه أثناء القراءة كما كانت تنزل من قبل، كان من القلائل الذين قاوموا، يقرأ في سورة البقرة حتى وصل لآيةٍ يُحبها كثيرًا.

«ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُون»

توقف عند تلك الآية متدبرًا، نعم قست قلوبنا حتى من قبل أن تجف دموعنا، كالحجارة أو أشد قسوة؟ آه من قلوبنا القاسية.

أعاد قراءتها عدة مرات حتى شعر بشعورٍ اشتاق له كثيرًا، شعر بغرغرة الدموع في مقلتيه، تقف الدموع على جفونه كأنها تُقاوم النزول، يُعيد قراءة الآية مرارًا وتكرارًا بخشوعٍ، يشعر بقلبه يلين ويصبو إلى دمعه من خشية الله، وأخيرًا تنزل دمعةٌ وحيدةٌ في بطء كأنها تحفر خندقًا على وجنتيه لتنهمر فيه بعدها دموعه بلا توقف، تنهمر كسيولٍ محبوسةٍ منذ زمنٍ حتى تكاد تغرق ملابسه. يشعر براحةٍ عجيبةٍ تأخرت عليه كثيرًا وهو يشعر أنه يطهر من داخله، وقف ناظرًا من النافذة يُشاهد الدخان يتصاعد من الأطلال حوله في كل مكانٍ قائلًا كأنه يُخاطب العالم بأسره: فروا إلى الله تلين قلوبكم وتعود دموعكم، فروا إلى الله.

❋❋❋

سَبْر الأغوَار

«يا ليتني كنتُ أستطيع أن أعرف حقيقة البشر منذ البداية حتى لا أصدم صدمةً كتلك التي حدثت لي»

قالها لنفسه وهو ينظرُ بأسى إلى صور زفاف صديق عمره وحبيبة حياته على مواقع التواصل الاجتماعي؛ كانت تلك الخيانة كزلزالٍ حطم كل ما كان يؤمن به من مفاهيم وغيرت من موازينه وأفكاره، منذ أن أصبحت حبيبته تتهرب منه وتُحاول الابتعاد عنه حتى عرف ذلك الخبر المشئوم، فقد الثقة في الجميع حتى حاول أقاربه وأصدقاؤه من إخراجه من عزلته الاختيارية واكتئابه الحاد.

ترك هاتفه حتى لا يرى باقي الصور ولم يكمل قهوته الصباحية وذهب إلى عمله.

ما أن دخل إلى عمله حتى رآها، زميلته رائعة الجمال، أشقر شَعرها كجداول الذهب، بيضاء، زرقاء العينين اللتيْن تشعان براءة ونقاء، كان يرى أن قلبها أطيب قلب وفكر فيها كثيرًا ليُحاول أن ينسى ما حدث له ولكنه كان يخافُ من صدمةٍ أخرى لن يتحملها قلبه المشروخ.

مدَّ يده ليُلقي عليها السلام ويلمس يديها الناعمتين.

- صباح الخير، كيف حالك؟

ردت عليه باسمةً بابتسامةٍ جعلت قلبه يشرق من ظلمائه.

- بخير حمدًا لله، ماذا حدث ليدك؟

نشوته برؤيتها جعلته لا يلحظ التغيير الذي حدث ليده، وجدها فجأةً تحمرُّ وتمتلئ بالبثور المليئة بالصديد وتبدأ في إيلامه، يشعر بحكةٍ شديدةٍ تجعله لا يطيق يده ويتمنى قطعها.

يجري إلى مكتبه ويفتح الصنبور ليغرق يده بالمياه لعلها تريحه، يدخل عليه الساعي العجوز المُتجهم الوجه دائمًا الذي لم يرتح له أبدًا منذ أن سرق هاتفه منذ شهورٍ ولم تُساوره الشكوك سوى في هذا الساعي الذي لم يرَ صفَّ أسنانه في ابتسامه أبدًا.

يضع يده على كتفه ويربت عليه في حنانٍ:

- ما بك يا بني؟ وجدتك تجري بسرعةٍ متألمًا فأتيت للاطمئنان عليك.

- انظر إلى ما حدث ليدي.

- ماذا حدث لها؟

- أأعمى أنت، انظر!

ينظر إلى يده التي كانت مشوهةً منذ لحظاتٍ فيجدها أصبحت بيضاء من غير سوءٍ مرةً أخرى.

- أنا آسفٌ لانفعالي عليك.

– لا تتأسف يا بني، أنا معتادٌ على ذلك، المهم أنك بخير.

دخل إلى مديره يحمل ملفًّا مهمًّا كان قد طلبه منه، يُعطيه الملف فتتلامس أيديهما بلا قصدٍ، تعود يداه إلى الاحمرار مرةً أخرى وتبدأ البثور في الظهور وتُداهمه الآلام، ينظرُ المدير باشمئزازٍ إلى يده ويصرفه مُبلغًا له أن يأخذ إجازة ولا يعود قبل أن تشفى يده.

فرغ من عمله وذهب إلى سيارته والآلام تُطارده، ماذا يحدث له، جحظت عيناه من الدهشة حينما تذكر أمنيته الصباحية، أن يعرف حقيقة الناس، هل تلك البثور استجابة لأمنيته الصباحية؟ هل إذا لمس الخبيث من البشر تظهر وإذا لمس الطيبون الأنقياء تختفي؟

دخل إلى منزله وهو يفكر في تلك المصيبة التي حلت به، ولكنه قرَّر أن يتأكد مرةً أخرى فذهب لملاقاة أصدقائه على أحد المقاهي؛ ما أن دخل إلى المقهى حتى نظر الجميع إليه نظراتٍ شفقة على مرضه الجلدي المزعوم.

ها هم أولاء أصدقاؤه، مدَّ يده ليُسلم عليهم واحدًا واحدًا، تردد أصدقاؤه في أن يمدوا أيديهم ولكنهم خجلوا أن يتركوا يده ممدودةً لهم في الهواء، سلم على الأول، ازدادت الآلام في يده، سلم على الثاني، لا تزال يده مشوهةً، سلَّم على الثالث اختفت البثور وعادت يده لطبيعتها، اقشعرَّ بدنه بعدما تأكد مما حدث له، جرى خارجًا من المقهى كالمجنون مبتعدًا عن أيِّ أحدٍ في طريقه حتى لا يلمسَ آخرين فتعود الآلام مرَّةً أخرى.

عاد إلى بيته والدهشة تملؤه، كيف سيتعامل مع الناس بعد ذلك؟

كان من قبل الجميع سواء عنده دون ان يعرف حقيقتهم، كل مجتمع به الصالح والطالح مختفيين في بعضهم البعض كزبد البحر لا تعلم أي موجةٍ أحدثته؛ تلك هي الحياة أن تتعامل مع الجميع وتكتشف أو لا تكتشف حقيقتهم فتستمر الحياة، أما الآن فلن يستطيع أن يتعامل مع أحدٍ وهو يعلم حقيقته منذ البداية، ستفضحهم يده وتفرض عليه أسلوب حياته، سيفقد أصدقاءه وجيرانه وأقاربه ويعيش وحيدًا في عزلته الإجبارية التي فُرضت عليه ولن يستطيع الخروج منها، وحتى إذا حاول الخروج، كيف سيتحمل تلك الآلام البشعة.

لزم منزله ولم يخرج منه، كان البواب يأتي له بطلبات المنزل ويجعله يتركها على الباب ليتجنب ملامسته.

في إحدى المرات بعد أن وضع البواب الحاجيات أمام الباب فتحه ليتناولها فسمع صوت ارتطام، لقد تعثر البواب وسقط على درجات السلم، انطلق بلا تفكيرٍ ومدَّ يدَه ليسنده فشعر بالآلام والبثور تجتاحه مرةً أخرى، جرى إلى الشارع كالمجنون يريد ملامسة الناس لعله يعثر على إنسانٍ نقي يُعيد إلى يده بياضها، انطلق الناسُ يجرون في كل مكانٍ هربًا من هذا المخبول ذي اليد المشوهة الذي يجري نحوهم يريد أن يلمس أجسادهم، يفقد الأمل بعد أن يهرب منه الجميع فيجلس على الأرض متأوهًا باكيًا.

من بعيدٍ جلس يُتابع المشهد، هذا الصحفي بإحدى الصحف الشهيرة الذي علم بحدسه الصحفي أن ما يحدث أمرٌ غير طبيعي قد يُعطيه سبقًا صحفيًا غير مسبوقٍ، يقترب منه في بطءٍ ويجلس بجانبه.

– ما بك؟ لماذا تجري هكذا؟

ينتابه الأمل مرةً أخرى فيمسك بيد الصحفي في سرعةٍ ولكنه يفقد الأمل مرةً أخرى عندما تظل يده كما هي.

- ابتعد عني!

- لماذا أنا قد أستطيع مساعدتك، فقط احك لي حكايتك وأنا واثقٌ أنني سأجدُ لك حلًّا!

حكي له قصته باختصارٍ فعلم الصحفي أن ظنه صحيحٌ وأن هذا الشخص الماثل أمامه سيكون طريقه للشهرة والمجد.

ملأت أخبارُه وصورُه جميع الصحف والمجلات؛ أصبح حديث المدينة والفضائيات، لقاءات مع أطباء نفسيين وأطباء أمراض جلدية ومحللين استراتيجيين، لقاءات مع جيرانه وزملائه في العمل.

ازدادت عزلته أكثر بعد أن أصبح أشهر من النار على العلم؛ ابتعد عنه الناس أكثر حتى لا تفضح حقيقتهم، كل منهم عنده حقيقة يُخفيها عن الجميع وحتى عن نفسه لا يريد أن يفضحها على الملأ أو يفضح نفسه أمام نفسه، كل منهم له مبرره لحقيقته الخفية التي لا يُريد أن يعلمها أحدٌ؛ حتى الأنقياء ابتعدوا عنه خوفًا من ألا يكونوا أنقياء، نقاؤهم وسط الظلام أصبح محل شك حتى من أنفسهم، انتفضت الأجهزة الأمنية من هذا الشخص الذي أصبحت بثوره تُهدد السلم الاجتماعي، ماذا لو دفعت له إحدى الجهات الأجنبية أو زعماء المعارضة المغرضة أموالًا طائلةً ليندسَّ وسط الوزراء والمسئولين ليفضح حقيقتهم وسط الناس، أصبح الخلاصُ منه مطلبًا شعبيًّا حتى يهرب الناس من حقيقة نفوسهم المهترئة التي تفضحها آلامُه، لم يتحملوا وجود من يسبر أغوارهم ويكشف دواخلهم.

بعد أن ازدادت عزلته قرر الانتحار؛ أصبح لا يتحمل تلك العزلة كأنه أصبح وحيدًا في هذا العالم، لم يتحمل آلامه المُبرحة التي لم ينفع أي مرهم أو دواء في علاجها، لذا قرَّر أن يُريح ويستريح؛ يريح الناس ويتركهم في حقائقهم الزائفة يرتعون ويستريح من عزلته وآلامه.

- نعم، يجب التخلص منه اليوم قبل غدٍ؛ ولكن يجب أن يبدو الأمر كأنه انتحارٌ حتى لا يتحوَّل إلى بطلٍ شعبي تتناقل حوله الأساطير.

- سيتم التنفيذ في أقرب وقتٍ.

تقتحم قواتُ الشرطة منزله بعد أن اشتكى الجيران من رائحةٍ كريهةٍ تخرج من شقته؛ يجدونه مشنوقًا بحبلٍ غليظٍ أفقده حياته. لم يعلم أحدٌ أنتحر هو أم قُتل، لم يهتم أحدٌ بهذا التساؤل؛ كان المهم أنه رحل، المهم أن الأمور عادت سويةً كما كانت قبله وعادت الحقيقة إلى مجراها الخفي مرةً أخرى بعد أن طويت صفحة سابر الأغوار الغامض.

***

هاملت

أتلقى تحية الجمهور عند بداية ظهوري على المسرح، أقوم بدور أوفيليا حبيبة هاملت في المسرحية التي حازت على إعجاب النقاد و الجمهور على حدٍّ سواء؛ لكنهم ينسبون النجاح للنص الشكسبيري الشهير، كأن هاملت التي قدمت عشرات المرات على المسرح من قبل كلهم نجحوا هذا النجاح الرهيب، يخجلون أن يقولوا إن من جاء لمشاهدة هاملت جاء لمشاهدتي أنا، جاء ليراني أنا في هاملت وأنا أصول وأجول على المسرح أخرج كل ما في جعبتي من عبقريةٍ تمثيليةٍ لأسحر الجمهور المبهور أمامي، هذا الجمهور الذي ما أن يراني في أي مكانٍ حتى يتهافت على ليُصافحني ليشعرَ بالفخر ويحكي لأصدقائه وجيرانه وكل من حوله أن يده لامست يدي في أحد الأيام، ما أن أذهب إلى أي مكانٍ حتى تتوقف فيه الحياة تمامًا، يتسمَّر الجميع في إعجابٍ شديدٍ كأنهم رأوا حورية من حوريات الجنة، يسعى الجميعُ للتقرب مني لكي يحظوا بشرف معرفتي؛ أنا النجمة الشابة في سماء الفن بل الشمس الساطعة ومن حولي نجومٌ خافتة الضياء، اسمي فقط على أفيش أي فيلم أو مسرحية كفيلٌ بضمان نجاحها نجاحًا

منقطع النظير؛ لهذا أنا الأعلى أجرًا في الوسط الفني. إخباري في كل الجرائد والمجلات، ادفع لبعض الصحفيين أموالًا حتى يكتبوا عني أخبارًا صحيحةً وشائعاتٍ لا أنفيها وأحيانًا أختلقها حتى أكونَ محور حديث الجميع.

أنتزعُ الآهات في مشهد معرفة أوفيليا لمقتل والدها بولونيوس على يد حبيبها هاملت؛ آهات كأنهم يسمعون الست أم كلثوم في أروع أغانيها، أكاد أشعرُ أن قلوبهم تدمع من دقة وروعة أدائي؛ قاربت المسرحية على الانتهاء، ستأتي قريبًا لحظتي المفضلة، لحظة تحية الجمهور لي، يظل التصفيق لعدة دقائق متواصلةٍ بكل حماسٍ وإعجابٍ، أشعر أنهم سيظلون يصفقون لي إلى الأبد؛ في تلك اللحظة أشعرُ أنني فوق السحاب، يُلقون إليَّ القُبلات والورود في الهواء أستقبلها بانحناءةٍ خفيفةٍ لجمهوري العظيم.

يُصفق حفيدها البالغ من العمر خمس سنوات ويضحك كثيرًا وهو يرى جدته الممثلة السابقة ذات السبعين ربيعًا بعد انحسار الأضواء عنها منذ سنواتٍ وهي تنحني له وتنظر يمينًا ويسارًا، كأنها تُحيي جموعًا غفيرةً رغم أنه لا يُوجد سواهم في الحجرة المليئة بصورٍ لها في شبابها مع نجوم الزمن الجميل.

***

القلبُ وما يُريد

أمامك أسبوع وسنرفع اسمك من قائمة الانتظار، حالتك للأسف تدهورت وسنضطر إلى إلغاء العملية إذا لم نجد متبرعًا قبل تلك المدة.

قالها الطبيب المعالج لأمير الشاب المريض الذي يحتاجُ إلى عملية زراعة قلب بعد أن فقد الأطباء الأمل في أي علاج أو تدخل جراحي لإنقاذ حياته. محجوز في المستشفى الفخم منذ عدة شهور منتظرًا دوره في العملية الصعبة. صدمه الطبيب بذلك الخبر الأليم، لا يزال في فجر شبابه تخرج من كلية الهندسة منذ سبع سنوات ويعمل في إحدى أكبر شركات البترول بمرتب ضخم؛ يعيش مع والده رجل الأعمال الشهير وأمه وإخوته في قصره المهيب، لديه أموالٌ وسيارات وشاليهات، يمتلك كل شيء في الحياة ما عدا قلبًا ليحياها. قلبه شابٌّ هَرِمَ قبل موعده ينتظرُ انتهاء حياة أحدهم ليبدأ هو حياته الجديدة.

كان أحيانًا يظن أنه هو من أودى بقلبه إلى الهلاك بأن تركه خاويًا على عروشه؛ لم يملأه بالحب إكسير الحياة من قبل، ليس عن قصدٍ بل لأنه لم يجد من تدق بابه وتستولي عليه، كان يُريد حبًّا يُزلزل كيانه وبركانًا ثائرًا يُلقي بحممهِ المُلتهبة في قلبه؛ يجعله بالكامل ملكًا لها

أميرته المنتظرة، ولكن فات الأوان سيموت وحيدًا بدون أن تأتي تلك الحبيبة المجهولة.

استيقظ أمير في اليوم التالي ليجد أباه وأمه وإخوته حوله والفرحة تملأ وجوههم، وجدوا المتبرع، شاب في مُقتبل عمره توفي منذ عدة ساعات والتحاليل أثبتت أن قلبه مناسبٌ لأمير.

جاءت اللحظة الحاسمة، سيستبدل قلبه الخرب بقلبٍ آخر مليء بالحيوية ينطق بالحياة رغم موت صاحبه. شعورٌ غريبٌ أن تعيش بدقات قلب إنسان آخر، لا يدري هل كان مليئًا بالحب يرفرف بالسعادة أم مثله يدق دقاته الروتينية فقط ليضخ الدماء إلى باقي الجسد ليعطيه القدرة على العيش بلا مشاعر حقيقية تجعل لحياته معنى؟

ينزل إلى حجرة العمليات فورًا ليُجري العملية المرتقبة، تنجح العملية بعد عدة ساعاتٍ عصيبةٍ قضاها أهله في انتظارٍ مريرٍ كأنها سنواتٌ عديدةٌ مرَّت عليهم.

يفتح عينيْه في بطء ليجدَها أمامه متشحةً بالسواد تنظر إليه في دهشةٍ وعيناها الساحرتان تترقرقان بالدموع ثم تخرج من الحجرة في سرعةٍ وهو يسمع أنَّاتها ونحيبها.

يتساءل فيقولون له إنها أرملة صاحب القلب الذي يدق في صدره الآن جاءت لتُنهي بعض الإجراءات وتطمئن على العملية وما أن رأته يفتح عينيه حتى انهارت من التأثر وخرجت مسرعةً.

أرملته؟هل يترك أحدٌ هذا الجمال الفاتن ويموت؟ لقد سحرته بنظرة عينها في لحظاتٍ كان لا يزال في غير وعيه فيها، كأنه كان حلمًا لا يتذكر منه سواها.

تمرُّ شهورُ فترة النقاهة ويبدأ في العودة لحياته رويدًا رويدًا وكان أول ما يفعله هو أن يزور الأرملة التي دق قلبه لها بعد أن رآها كملاكه الحارس بعد العملية.

أخذ تفاصيل عنوانها من المستشفى وقرَّر زيارتها بحجة شُكرها على قلبه الذي يُحييه ومواساتها في رحيل الزوج.

طرق الباب في بطءٍ مترقبًا متحمسًا مليئًا بالرهبة من هذا اللقاء؛ فتحت له ونظرت له متسائلةً، لم تتذكره، لم ينسها يومًا وهي لم تتذكره. شعر بقلبه يدقُّ في سرعةٍ بل ينتفض لرؤيتها، قال لها متلعثما: أ.. أ.. أمير..

- أمير مات، ماذا تريد؟

- أنا.. أنا أمير!

آه.. آسفة فزوجي الراحل اسمه أمير أيضًا، خير؟

- أنا الذي... مم.... أنا أميرٌ.. عملية زراعة القلب.

- أهو أنت؟ أنا آسفةٌ فأنا لم أرك سوى لعدة ثوانٍ، تفضل!

- أعتذرُ عن مجيئي من غير ميعادٍ، ولكن جئت فقط لتقديم التعازي، أعتذر عن التأخير فأنا لم أقدر على الحركةِ بصورةٍ طبيعيةٍ الفترة السابقة.

- لا عليك أشكرك على ذوقك، ماذا تشرب؟ قهوة شاي نسكافيه؟

- نسكافيه بلاك ملعقة وربع سكر.

تسمَّرت في مكانها.

- أهناك شيءٌ؟

- إنه نفس طلب أمير رحمه الله.

ذهلت أنا أيضًا؛ فأنا قبل العملية لم أكن أشرب نسكافيه أبدًا، كنتُ مندهشًا من نفسي عندما بدأتُ أشربه بشراهةٍ في الأيام القليلة الفائتة.

- بعد إذنك سأذهبُ إلى الحمام. قمتُ ذاهبًا إلى الحمَّام وقبل أن أفتح باب الحمَّام توقفتُ مكاني ونظرتُ إليها وجدتها تنظرُ لي مندهشةً؛ كيف عرفتَ مكان الحمَّام وأنا أول مرة آتي إلى هذا المنزل، نظرتُ حولي وأحسستُ أن هذا المكان بالنسبة لي ككتابٍ مفتوحٍ، إني أعرفُ كل شبرٍ فيه كأنه مرسومٌ في ذهني.

تعددت الزياراتُ والمكالماتُ بيننا؛ اقتربنا من بعض كثيرًا وأصبحنا نكاد لا نفترق أبدًا، كنتُ أشعر أني أعرفها منذ زمنٍ بعيدٍ، مرَّت الشهور وطلبت منها الزواج، ترددت في البداية ووافقت بشرط أن يمر عامٌ على وفاة زوجها لنتقي كلام الناس.

قضينا أسعد أيام حياتنا مع بعضنا، رغم أنني مع الوقت بدأتُ أشعرُ بتغيرات في نفسي؛ فمثلًا كنتُ لا أطيق أن أسمع أغاني قديمة أصبحت عاشقًا لكل ما هو قديم خاصة أغاني الست؛ وبالصدفة وجدتُ ركنًا خاصًّا بالأقراص المدمجة كله أغانٍ لثومة في المنزل! حتى ذوقي في الطعام تغير، ذوقي في الملابس، أصبحتُ أشعرُ أنني أتخلى عن نفسي ببطءٍ ولكن بقوةٍ. حتى زوجتي كانت تلاحظ هذا، كانت تقولُ لي إنني أصبح في كثيرٍ من أميرٍ وكلما زاد التغييرُ كلما أحسستُ بقلقٍ شديدٍ ينتابها لا أعرف لماذا.

كانت تتجنب دائمًا الحديث عن زوجها الراحل، سواء حياته أو وفاته.

بدأنا زواجنا في تفاهمٍ وتناغمٍ جميلٍ؛ كنتُ أعاملها كملكةٍ متوجةٍ، أبدأ اليوم بأحبك وأنهيه بأحبك، وما بينهما أملأه بالعشقِ الصافي النقي، كان كل همي أن أراها سعيدةً ولكن أحيانًا كانت تأتي نوباتُ فتور شديد من ناحيتها، كانت تأتي على فتراتٍ متباعدةٍ ثم بدأت تتكرر كثيرًا، كأني شخصٌ آخر غير أمير المُحب العاشق، أصبحت لا أطيق العودة إلى المنزل، أسهر إلى الصباح مع أصدقائي ولا أكلف نفسي حتى أن أبلغها أين أنا ومتى سأعود، ما لها هي تلك المُملة، وأصبحتْ جلساتي مع أصدقائي غير بريئةٍ، نساء وخمور وأشياء لم أفعلها من قبل في حياتي؛ أفعلها الآن دون أن يهتز لي جفنٌ كأني مُعتادٌ عليها منذ زمنٍ، حتى صَلاتي التي كنتُ أحاول المواظبة عليها لم أركعْ ركعةً واحدةً منذ أسابيع بلا أي تأنيبٍ من ضميرٍ. وهذا الطيف الذي يأتيني دائمًا بأن رصاصة تخترقني، ماذا يحدث لي؟ تبًّا لهذا القلب اللعين، يتملكني كطوفانٍ شديدٍ يُغرق ما أمامه، يمتصني كالرمال الصفراء عندما يسكب عليها المياه فتتحول لطينٍ لزجٍ، كبقعة حبرٍ في كوبٍ من اللبن الصافي تعكره إلى الأبد؛ لم أعد أدري أأنا أنا أم أنا هو؟ كيف أحيا حياةً غير حياتي؟ أحيا حياة يتحكم فيها هو من قبره بسبب جزءٍ شيطاني منه زرعته في صدري. لا أطيق تلك الحياة الكئيبة التي لم ولن تُلائمني قط. يجب أن أتحدث مع تلك الحمقاء حول زوجها هذا.

أدخـلُ البيـت في عنـفٍ ومـا أن أراهـا حتـى أمسـكها مـن شَـعرها وأصرخ فيهـا: حدثيني عـن أمير، حدثيني عـن زوجـك، هيـا تكلمـي. تخـرج الكلـمات مبهمـةً مـن شـفتيها وأفهمهـا بصعوبـةٍ وسـط دموعهـا: كان مثلك بالضبط، مثلك الآن لا ليس كما تزوجتك، أصبحت نسخةً طبـق الأصـل منـه في كل شيء، في كل شيء.

– وكيف مات هذا الملعون؟

– لم يمت.

– ماذا تعنين بلم يمت؟!!

– لقـد... لقـد... لقـد انتحـر، أطلـق عـلى نفسـه الرصـاص هنـا في تلـك الحجـرة.

– انتحر؟ لماذا لم تقولي لي منذ البداية؟

– كنـتُ أريـد أن أطـوي تلـك الصفحـة المريـرة في حيـاتي، وأبـدأ معـك صفحـةً جديـدةً مليئـةً بالحـب ولكنـي كنـتُ واهمـةً، كلكـم مثـل بعـض، تبًّـا لكـما أنتـما الاثنـان دمرتمـا حيـاتي.

– اخرسي اخرسي!

لم أشـعر بنفسـي إلا وأنـا أضربهـا ضربًـا مُبرحًـا وأجرهـا عـلى الأرض؛ أضربهـا حتـى تورمـت يـداي وسـط صراخهـا، لسـتُ أنـا مـن يضربهـا إنـه هـو؛ أحـاول التوقـف وأشـعر أني أريـد أن أحتضنهـا وأمسـح دموعهـا ولكـن بـلا جـدوى، أتركهـا فتجـري إلى غرفتهـا وتُغلـق عـلى نفسـها بالمفتـاح. أنتحـر؟ أهـذا سـيكون مصـيري أيضًـا؟ أتخلـص مـن المـوت هادئًـا عـلى سريـري لأمـوت منتحـرًا كافـرًا وسـط دمائـي. تبًّـا لـك يـا

أمير، تبًّا لك.

يسمع الجيران صوتَ طلقٍ ناري يدوي في هدوء الليل، وصوت سارينة الشرطة تكسر الصمت وينتشر الخبر عن انتحار أمير في غرفةِ مكتبه بطلقٍ ناري من طبنجته الخاصة.

– في سبقٍ صحفي نُجري أول حوارٍ مع المتهمة في القضية التي هزَّت الرأي العام، مع الزوجة التي قتلت زوجها بدمٍ باردٍ وحاولت الإيحاء بأنه انتحر حتى تهرب من العدالة.

– لماذا قتلت زوجك؟

– قتلته لأنه حوَّل حياتي إلى جحيم؛ كان يضربني ويسبني ويُهينني لأتفه الأسباب، كان يخونني أمام عيني، كان يتحدثُ إلى عاهراته في الهاتف وأنا جالسةٌ بجانبه، يتحدث معهن كلامًا حميمًا ويتفق على مواعيد مقابلته معهن ولا يُعير لي ولا لمشاعري بالًا؛ لم أكن زوجة، كنت عبدةً عنده، لم أكن أطيقه ولا أطيق أنفاسَه في المنزل، وضعتُ له مخدرًا في الطعام وأطلقت عليه الرصاص ووضعت الطبنجة في يده حتى يبدو الأمرَ انتحارًا.

– وهل قتلت زوجك الثاني أيضًا؟

– لا لا، أقسم أني لم أقتله، انتحر فعلًا؛ كان حنونًا هادئًا في بداية زواجنا ثم بدأ يتغير شيئًا فشيئًا حتى أصبح كزوجي الأول؛ كنتُ أشعرُ بالصراع داخله بينه وبين زوجي الأول منذ أن زرع قلبه فيه، أصابته حالةٌ من الاكتئاب والهلاوس عندما لم يجد نفسه، كان يشعر أنه يفقد نفسه وشخصيته لصالح أمير الظالم العنيف، ولما انتحر شكَّ

الجميع في أمري؛ فأي عاقل لن يُصدِّق أن ينتحر زوجاي الاثنان بنفس الطريقة في تلك المدة القصيرة فأمرت النيابة باستخراج جثة زوجي الأول واكتشف الطب الشرعي أنه قُتل ولم ينتحر؛ يا ليتني ما تزوجته هذا الأبله الذي ضيَّعني وكشف أمري، كأن زوجي الأول أخذ بثأره مني من خلاله، يا ليتني ما تزوجته!

***

الرِّحلةُ العَجِيبَةُ

فيل مرة أخرى في وسط الطريق؟ هذا كثيرٌ.

أضغط على مكابح سيارتي المتواضعة والتي تتوقف بصعوبةٍ في اللحظة الأخيرة قبل أن أرتطم به بسبب نعومةِ الطرق الرملية التي أسير عليها.

أنزل من السيارةِ وأنظر بجانبي لأجد بضعة صبية يختبئون مني خلف بعض الصخور.

أمسك بالفيل وألقيه باتجاههم وأصرخ بأعلى صوتي لهم:

خذوا حذركم وأنتم تلعبون وإلا لن أعيده لكم إذا حدث ذلك معي مرةً أخرى.

أعود إلى سيارتي تحرق بشرتي الشمس الحارقة وتُصيب جسدي حبات الثلج المتساقطة.

يعبر تنينٌ أخضر كبير فوقي يُحييني بنفث نيران من منخاره، وأرد له التحية بإشارةٍ من يدي.

لا أكاد أكملُ دقيقتين حتى يظهر أحدُهم أمامي وسط الطريق ويُشير إليَّ بالتوقف، أشعث، أغبر، يبدو عليه الإرهاق الشديد.

- من أنت؟

- أنا عابرُ سبيل، من فضلك خذني معك فلقد عايشت الأهوال منذ أن قدمت إلى هنا.

- أهوال؟! تفضَّل معي واحكِ لي عن تلك الأهوال!

- أين أنا أولًا؟

- أنت هنا.

- هنا أين؟

- أتدري شيئًا، لم أسأل نفسي هذا السؤال من قبل، وُلدت فوجدتُ نفسي هنا.

- أعني ما اسم هذا المكان؟

- مكان، لِمَ تُريد أن تعرف اسمه، مكان وكفى.

- أريد أن أعرفَ، لكي أعرف كيف سأعود لبلدي.

- ماذا تعني ببلدك؟ كلنا هنا ننتمي لهذا المكان.

- ولكني أريد العودة، يا ليتني لم أدخل إلى هذا الكهف المشئوم.

- أي كهف؟

- كنتُ في أحد المخيمات مع الجامعة واستيقظت قبل الفجر ولم أستطع النوم مرةً أخرى فخرجتُ من خيمتي وجلستُ أمامها فرأيت من بعيدٍ إحدى الهضاب المُحيطة يخرج منها نورٌ ساطعٌ أزرق غريب،

فدفعني فضولي أن أذهب لمصدر هذا النور فوجدته كهفًا ضيقًا ما أن دخلته حتى وجدتُ نفسي هنا.

– مممم،هذا عجيبٌ فعلًا؛ إذن فأنت غريبٌ عن هنا؟ حدِّثني إذن عن الأهوال التي أخبرتني أنك واجهتها.

– وجدتُ نفسي وسط صحراء مترامية الأطراف، في وسطها أشجارٌ كثيفةٌ لا تتناسب مع الرمال الصفراء المحيطة؛ فجأة وجدتُ قطًّا بدا لي أليفًا في البداية سرت وراءه لعلي أجدُ أثرًا لحياةٍ، فجأةً وجدته يُدير رأسه نحوي ويُبرز أنيابًا لم أر مثلها قط، كأنها نيوبُ ليثٍ مفترسٍ؛ ركضتُ بسرعةٍ بعيدًا عنه واختبأت خلف شجرة وجدت بها جميع الثمرات، شجرة واحدة تثمر تينًا ومانجو وجوافة وبلحًا وكل ما لذَّ وطاب من الفواكه، رغم ضخامتها فهي تتمايلُ مع الرياح الخفيفة برشاقة كراقصة باليه شابة، قطفت عدة ثمرات وأكلتها وأشبعت جوعي، سمعتُ دبيبًا شديدًا ورائي نظرتُ لأجد ديناصورًا كبيرًا يقتربُ مني، تجمَّدت في مكاني من الرعب فأخرج لسانه ليلعقني ككلبٍ أليفٍ ورفعني على ظهره وأتى بي إلى المكان الذي رأيتني فيه وربت على كتفي وتركني وذهب، كان ثاني أعجب شيء رأيته في حياتي.

– وما أعجب شيء رأيته؟

– لا أدري، ولكن من المؤكد أنني سأري أعجب من هذا في تلك الأرض الغريبة.

– وما الأهوال فيما رأيته؟ كل ما رأيته نعيشه هنا كل يوم، يبدو أنك أتيت من أرض العجائب حتى تتعجب من أرضنا. تعالَ معي ستبيت معي في المنزل.

انطلقت مع الرجل الغريب إلى منزلي، نزلنا من السيارة فوجدتُ حفيدي أمامي.

- كيف حالك؟ لم أرك منذ زمنٍ.

- أوحشتني يا جدي سآتي لزيارتك قريبًا.

- مَن هذا الرجل؟

- إنه حفيدي.

- كيف ذلك.. إنه يبدو أكبر منك في السن، كم عمر زوجتك إذن؟

- أنا لم أتزوج ولم أنجب بعدُ.

- لم تتزوج ولم تنجب ولديك حفيد؟

- لديَّ أربعة أحفاد، هذا حفيدي عندما أتزوج وأنجب، هنا لا وجود للزمان ولا المكان ولا المنطق، يتداخل المكان مع الزمان في تناغمٍ دقيقٍ لا منطقي.

- ولكن كل شيء يجب أن يستند إلى منطقٍ وإلا انهارت الأشياء.

- كل شيء يجب أن يستند إلى القدر وإلا انهارت الأشياء، الشيء الوحيد المنطقي هنا هو القدر، سأحكي لك قصةً صغيرةً، كان القدر والمنطق يركبان معًا في سيارة فتعطلت بهما ليلًا في طريقٍ مهجورٍ، فقرروا المبيت إلى أن يأتي الصباح ليبحثوا عمن يصلح لهم السيارة، افترش المنطق على جانب الطريق لينام بينما افترش القدر في وسط الطريق؛ تعجب المنطق ونصح القدر أن يأتي لينام بجانبه فرفض، بعد قليل جاءت سيارةٌ مسرعةٌ فوجدت القدر ينام في وسط الطريق

فانحـرف بسرعـةٍ ليتفـاداه فارتطـم بالمنطـق وأرداه قتيـلا. هنـا انتحـر المنطـق، أصبـح في حكـم العـدم، حتـى في تعاملاتنـا مـع بعـض وحياتنـا الشـخصية لا وجـود للمنطـق حتـى إننـي لم أسـمع تلـك الكلمـة منـذ سـنوات. مـا دام كل منـا يسـير نحـو قـدره المحتـوم، فـما الداعـي لِمَنْطَقـة الأشـياء؟

تلقـى الغريـبُ كلـماتي بدهشـةٍ شـديدةٍ وضحـت في عينيْـه، لـن يقتنـع بالـكلام، بالوقـت سـيعتاد الأمـر.

مـع مـرور الوقـت بـدأ يعتـاد عالمنـا إلا أنـه لا يـزال يندهـش! إذا رآني ألتقـط شـاربًا مـن عـلى شـجرة الشـوارب الشـهيرة لأضعـه عـلى وجهـي يندهـش؛ إذا قابـل رجـلا يمـشي ماسـكًا سلسـلة في آخرهـا تمسـاح ضخـم يندهـش؛ إذا رأى أحدهـم يُعطـي سـبيكة ذهبيـة لامعـة لصاحـب مطعـم في مقابـل بعـض الطعـام يندهـش، ولكـن تلـك الدهشـة بـدأت تـزول مـرة تلـو المـرة حتـى أحسسـت أنـه أصبـح مثلنـا يستسـيغ وجـوده معنـا.

– أريد أن أعود إلى بلادي!

– ألم تحب الحياة هنا؟

– بـل أحببتهـا، فهـي حيـاةٌ مريحـةٌ جـدًّا؛ لا أشـغل بـالي بـأي شيء قبـل أن أفعـل أي شيء ولا أتعجـب لأي شيء مهـما كان غريبًـا، ولكننـي أفتقـد أهـلي وأصدقائي.

– أنـا لا أسـتطيع مسـاعدتك سـوى بـأن أذهـب بـك إلى حكيـم الحكـماء، قـد نجـد حـلا عنـده.

– أهلًا وسهلًا بكما، كيف لي أن أساعدكما؟

يحكي له الغريبُ قصته منذ أن دخل الكهف إلى الآن والحكيم يستمع إليه باهتمامٍ شديدٍ.

- إنها المرة الأولى التي أسمع فيها مثل قصتك، العكس حدث كثيرًا، بأن يذهب أحدنا إلى عالمكم؛ ولكنها المرة الأولى التي يأتي أحدكم إلى عالمنا.

- وكيف يحدث هذا الانتقال؟

- لا أحد يعرف، اكتشف أحد أهلنا وجود شُعاع أزرق براق يخرج من الصحراء التي انتقلت إليها مع كل اكتمالٍ للبدر، فذهب البعض إلى عالمكم بدافع الاستكشاف وأغلبهم لم يرجع إلى هنا مرةً أخرى، فهم ينجحون هناك في أعمالهم وحيواتهم بالتعامل باللا منطق، اللا منطقية هي سر نجاحهم فيظلون عندكم ويأتون إلينا كل حين في زياراتٍ قصيرةٍ. الوسيلة الوحيدة لكي تعودَ أن تذهب إلى المكان الذي هبطت فيه مع اكتمال البدر غدًا وتدخل وسط الشعاع الأزرق لتعود إلى عالمك، وهذه قائمة ببعض أهلنا الموجودين عندكم إذا احتجت أي شيء تواصل معهم ونحن سنبلغهم بمجيئك.

اللامنطقية هي سر نجاحهم. أتذكر كلمات الحكيم العجوز رغم مرور السنوات على عودتي إلى هنا، كلامه صحيح تمامًا، تعودت ألا أستمع لنداء المنطق حتى في عملي، أفعل كل ما هو منافٍ للمنطق فيقتنع الجميع بمنطقي فأصبحت من الناجحين وصعدت في عملي بسرعةٍ هائلةٍ.

أخرج القائمة التي أعطاني إياها الحكيم وأنظر إلى الأسماء الموجودة بها، أسماء كثيرة وأغلبهم لم أتواصل معه منذ فترةٍ.

أختار أحد الأسماء وأمسك بهاتفي لأتصل به.

- معالي الوزير، كيف حالك؟

- أهلًا أهلًا سيادة المحافظ، أنا بخير وأنت؟ لم أسمع صوتك منذ زمنٍ.

- لهذا أتصل بك، لأقترح عليك أن نتجمع كلنا مع الإخوة عندي، ما رأيك؟

- أنا موافقٌ ولكنك تعلم أن الجميع مشغول في مسئولياته ولكنْ عندك حق، سنرتب المواعيد ونلتقي قريبًا.

***

الرَّقصُ على أنغامِ الموتِ

لم أصدق يومًا ما في عوالم الغيبيات واللا ما ورائيات، بحكم عملي كباحثٍ فأنا لا أصدق سوى ما أراه، لكل شيء تفسير علمي حتى ولو لم نعرفه الآن، أعرفُ أن هناك أحداثًا وقضايا يعجز العلم عن حلها ولكن ذلك لمحدودية علمنا الحالي، قد يجد أحفادنا لها تفسيرًا عندما يتقدم العلم أكثر في أجيالهم.

لم أصدق أبدًا أمر هذا الكتاب الذي يرهبه الجميع، الكتاب الملعون كما يدعونه، من يقرأه يموت بعدها، خرافات لا نزال نصدقها في القرن الحادي والعشرين.

لم ير أحدٌ هذا الكتاب، كلما سألت أحد المختصين يقولون لي إنهم سمعوا عنه، أتمنى أن أجده لأثبت للجميع أنه ما هو إلا خزعبلات وخيالات تناقلتها السنون.

سنوات وأنا أبحث عنه ولا أجده، بحثت عند جميع بائعي الكتب النادرة والقديمة وكأني أبحث عن أوهام، حتى قابلته، في أحد المؤتمرات العلمية التي حضرتها قابلت أحد الزملاء القدامى، كان

يدرس معي في الجامعة وسافر إلى بلده في الخليج بعد التخرج ولم أره منذ سنواتٍ، تقابلنا عدة مرات أثناء المؤتمر وتطرقنا إلى ذكريات ومواضيع شتى ولا أعلم لماذا ذكرت له أمر هذا الكتاب، كنا نتناقش في قواعد البحث العلمي والخرافات المنتشرة في عالمنا العربي وبالطبع ذكرت له مثال الكتاب فألقى بالمفاجأة في وجهي، إن والده يمتلك إحدى النسخ الخمس التي يُقال إنها موجودة منه، لمعت عيناي ببريقٍ كبريق عيون الذئب عندما يجد فريسته التي طالما يبحث عنها بعد جوعٍ طويلٍ.

- أقرأته؟

- ممم.. بصراحةٍ لم أقرأه.

- ولِمَ؟

- أخجلُ أن أقول لك إنني حاولتُ عدة مرات أن أقرأه ولكن كلما مددت يدي لمكتبة والدي لأسحبه أشعر بقشعريرةٍ تنتابني ورعشةٍ تُصيب يدي فأبعدها على الفور.

- أريد تلك النسخة، سأستعيرها منك وأعيدها إليك فور أن أفرغ منها.

- هذا إن كنت حيًّا.

- ماذا تقول؟

- لا شيء، كما تريد سأبعثها إليك بطردٍ مُسجل ما أن أعود.

أخيرًا أمسكت بك في يدي.

إنه ليس كتابًا بالمعنى المفهوم، إنه كتيب صغيرٌ بغِلافٍ أنيقٍ وخط يدوي رائع الدقة.

«رقص على أنغام الموت» يا له من عنوانٍ جذَّابٍ اختاره ذلك النصاب كاتب الكتاب ليزيد من الإيحاء بالخوف لمن يقرأه.

أرقد في سريري وأطفئ الأنوار وأنير الغرفة بمصباحٍ خافتٍ وأبدأ في القراءة:

«مرحبًا بك قارئي العزيز..

لا تتخيل سعادتي بأنك تقرأ كلماتي الآن، كلماتي التي أسجل بها قصة حياتي المتواضعة، وإذا كنت تتساءل عن اسمي فليس مهمًّا أن تعرفه، المهم أن تعلم قصتي ومكافأة لك سأحررك من جميع همومك وأحزانك عندما تفرغ من القراءة.

وُلدت لأسرةٍ بسيطةٍ، لم أكمل تعليمي بسبب ضيق ذات اليد، أبي وأمي كانا الحنان كما يجب أن يكون ولكن قسوة الحياة كانت أقوى من حنانهما؛ الطعام قليلٌ والأفواه جائعة والملابس لا تتغير بالشهور، أعمل منذ صغري في جميع الأعمال، أبيع مناديل، أبيع خضراوات، كنتُ لا أشعرُ بأنوثتي ولا بسعادتي ولا حريتي سوى وأنا أرقص! إنها ليست غلطةً مطبعيةً، نعم وأنا أرقص. كان لدى والدي راديو صغير كنت أشغله وأصعد به إلى سطح منزلنا وأظل أرقص تحت ضوء القمر حتى أشعر أنني وُلدت من جديدٍ، حينها أنزل إلى منزلي بداخلي طاقة تجعلني أستطيع إعادة كرة الحياة مرة أخري.

ظللت هكذا لسنواتٍ حتى رآني في إحدى المرات، أحد الجيران صعد ليدخن سجائره في السطح ورآني وأنا أرقص فجرًا فنشر الخبر في الحارة كلها وأصبحت فضيحتنا على كل لسان، أصبح ابي يمشي مطأطئ الرأس كلما خرج من المنزل ويتمنى العودة بسرعةٍ بعدًا عن

نظرات الناس التي لا ترحم، وبالطبع لم أستطع الحصول على الراديو ومنعت من الخروج نهائيًا.

استمر الوضع عدة أسابيع بدون أن أرقص، أصبحت أشعر كالطير الحبيس الفاقد الأمل في الحرية، أصبحت أشعر أنني سأموتُ اختناقًا كأنني في غرفةٍ مغلقةٍ معتمةٍ والمياه تزيد يومًا بعد يوم حتى بلغت فمي فقررت الهرب، سرقت مفتاح الشقة من والديَّ وهو نائمٌ وخرجت إلى العالم وأنا أرقص بخطواتي رقصًا مستترًا في الشارع شاعرة بالسعادة لأول مرة منذ شهور.

مالي أنا ومال تلك الفتاة ورقصها، أهذا هو الكتاب الذي يهابه الجميع، أخدعني صديقي أم ماذا؟ ما علاقة تلك القصة التافهة بموت من يقرأ.

«أصبح الشارع هو موطني، أرقص وحدي في وسط نسمات الليل الصيفية وصقيع الشتاء الشديد، في إحدى الليالي وأنا أرقص وقفت سيارة بجانبي وسمعت تصفيقًا حادًّا من ناحيتها، نظرت تجاه الصوت وجدته شابًّا في أوائل الثلاثينيات يقود سيارة فارهة، عرفني على نفسه أنه مُصمم رقصات وأعجبه رقصي رغم عشوائيته ولكنه به براءة ونقاء البداية وعرض عليَّ أن أعمل معه في المسرح الذي يعمل به، وافقت بالطبع رغم أنني لن أعمل راقصة، سأنظف المسرح وأساعد الراقصين والراقصات وأقضي لهم طلباتهم وأنام في حجرةٍ صغيرةٍ بالمسرح، كنت أشاهدهم يوميًّا في البروفات والعروض وأتعلم منهم جميع الحركات وانسيابية أجسامهم وأنفذها ليلا بعد أن يذهب الجميع.

في أحد الأيام وأنا أرقص ليلا وحيدةً وكأن المسرح مليء عن آخره ليشاهدني وجدت أنوار المسرح كلها تضيء ومصمم الرقصات يقفُ مع مُخرج العرض والانبهار يملأ وجوههم.

اليـوم التـالي كنـت أشـارك في التدريبـات كإحـدى الراقصـات ذات الأدوار الثانويـة».

مـا هـذا؟ أتـرك الكتـاب جانبًـا. شـعرتُ بخيـالاتٍ تمـر مـن أمامـي في الظـلام، كأن هنـاك أحـدًا معـي في الغرفـة. إنهـا تهيـؤات بالطبـع، سـأكمل قـراءةً، سـأكمل.

«كـما يحـدث في الأفـلام، بطلـة العـرض تمـرض ويختارونـني للقيـام بـدور البطولـة في العـرض الجماهـيري، عندمـا أعلمـوني بالخـبر ظللـت بضـع دقائـق متجمـدة في مـكاني، أخـيرًا سـيتحقق حلمـي، بطلـة عـلى المسرح أرقـص أمـام الجماهـير ونظراتهـم مسـلطة عـلى وحـدي.

أذهـب مـع مسـاعدة المخـرج ومصممـة الأزيـاء لاختيـار بعـض الأقمشـة والأزيـاء الخاصـة بالعـرض فأجـده أمامـي؛ يرمقنـي بنظـراتٍ أشعر فيهـا بفضيحتـه وهوانـه عـلى النـاس، أرى فيهـا كل كلمـة وكل نظـرة تتهمـه بالعـار والفضيحـة، تتلاقـى نظـراتي مع نظـرات أبي وأجده يسـتجمع قوتـه رغـم كـبر سـنه يجـري ورائـي ليفتـك بي، أجـري منـه في وسـط دهشـة رفاقـي وأعـبر الشـارع في سرعـةٍ لتـأتي سـيارةٌ مسرعـةٌ وتصدمنـي، يرمقنـي بنظـراتٍ قاسـيةٍ لم أرهـا منـه مـن قبـل ويتركنـي ويذهـب».

أأصبـت بالجنـون؟ أصبحـت أسـمع همسـات أيضًـا، كأن هنـاك مـن يتكلمـون بصـوتٍ منخفـضٍ. لا لا، أنـا لا أؤمـن بوجـود أشـباح، أنـا فقـط مرهـق بعـض الـشيء اليـوم.

«لن تستطيعي أن تمشي على قدميك مرةً أخرى.

تهشم عالمي وتحطمت أحلامي على صخور تلك الكلمات البغيضة.

لماذا الآن بعـد أن أصبـح حلمـي عـلى بُعـد خطـواتٍ، خطـوات صغيرة

ولكن لن أستطيع أن أمشيها بعد الآن؛ لماذا لم يحدث هذا وأنا ما زلت في بيت والدي أو حتى أعمل في المسرح، لماذا الآن وغدًا كنتُ سأكون نجمة المسرح، لماذا ليس غدًا بعد أن أشعر بنشوة وقوفي على المسرح كملكةٍ مُتوجةٍ لأول مرة.

كنتُ أحلمُ أنني سأحيا رقصًا وأموتُ رقصًا، لم يتحقق نصف حلمي بالحياة رقصًا نظرًا لما أصابني، ولكنني قررتُ أن أحقق حلمي بالموت رقصًا ولكن ليس في شخصي، في شخصك أنت أيها القارئ، وعدتك في البداية أنني سأخلصك من همومك وأحزانك، وليس أفضل من الرقص ليفعل هذا، فالرقص هو الحياة. سأخبرك بسرٍّ أخيرٍ، صفحات هذا الكتاب مطلية بنوعٍ خاص من عقاقير الهلوسة يمتص عن طريق الجلد، وبدأ يسري في دمك منذ أن لامست يدك أول صفحة، أعتقد أنك بدأت تشعرُ بتأثيره منذ قليلٍ، الآن أنت ستسمع موسيقى هادئةً تعلو وتعلو في كريشندو رائعٍ وأنت لن تستطيعَ التحكم في جسدك، لا أدري أتستمعُ الآن للحن القدر الحزين من أوبرا كارمن لبيزيه أم ملكة الحلوى من أوبرا كسَّارة البندق لتشايكوفسكي أم السيمفونية ٤١ لموتسارت، أيًّا ما تسمع ستظل ترقص وترقص وترقص بلا توقف بالساعات حتى لن تستطيع أن تتنفس وحتى يتوقف قلبك وهو ينبض بحب الحياة لتتطهر روحك وتصعد إلى السماء نقية صافية حتى تحقق حلمي مستحيل المنال.. حلم الرقص على أنغام الموت.

يا ليتني كنتُ مكانك.

الوداع....»

***

اقرأ كتابك!

أخيرًا طلبت مقابلتي يا عماه. لا أصدق أنك أخيرًا ستُعطيني حقي في ميراث أبي بعد أن ظلمتني وأمي كل تلك السنوات بدعوى أنك مَن تُدير الشركة وأن من حقك الاستيلاء عليها لأنها كبرت بمجهودك بعد أن ورثتموها من جدي بمكانةٍ متواضعةٍ في السوق حتى أصبحت من أكبر شركات الاستيراد والتصدير. استغللت ضعف أمي وقلة حيلتها وسني الصغيرة حيث لم أكن قد تجاوزت الثلاثة عشر عامًا وقتها. واليوم طلبتني بعد توسلاتي أنا وأمي لك ولكل أقاربنا طوال تلك السنوات العصيبة التي عصفت بنا كريشٍ في مهب الريح. فجأة بعد أن كنا نعيشُ حياةً مستقرةً مرفهةً أصبحنا نجد قُوت يومنا بصعوبةٍ بمساعدات الأقارب وبعض أصدقاء والدي القدامى، ولكن تلك المساعدات لم تستمر كثيرًا فلقد سُمي الإنسان من النسيان، فاضطرت والدتي أن تعمل أعمالًا بسيطةً كبائعةٍ للملابس في أحد المحلات وأحيانًا تطبخ الطعام وتبيعه للجيران. بعنا الفيلا التي كنا نسكن فيها لسداد ديون والدي وانتقلنا للعيش في شقة إيجار في إحدى

المناطق الشعبية. كل هذا وأنت تسبح في النعيم بأموال والدي رحمه الله التي حرمتنا منها وضيعت حياة أسرة كاملة من أجلها. يبدو أن مرضك الشديد الذي أصابك منذ عدة أشهر وقال الأطباء إن أيامك في الدنيا أصبحت معدودةً قد أيقظ ضميرك القابع في ظلمات الظلم وأنار بصيرتك أنك ستقابل رب عدل جبارًا قريبًا سيُحاسبك على كل كبيرةٍ وصغيرةٍ فعلتها في حياتك الآثمة. ها أنا ذا أدخل إلى قصرك الفارِه ويُقابلني أحد الخدم ويتجه بي إلى غرفة مكتبك ويبلغني أنك ستُقابلني خلال ساعة لأن عندك اجتماعًا مهمًّا في الشركة.

أدخل إلى الغرفة وأجلس على الكرسي المقابل لتلك المكتبة الضخمة التي تحتوي على عشرات الكتاب متراصين جنبًا إلى جنبٍ. لم أعرف عنك يا عمي أنك قرأت كتابًا في حياتك، هذه الكتب من أجل الوجاهة الاجتماعية فقط لا غير. أقوم وأنظر إلى عناوين تلك الكتب، كتب في التاريخ والاقتصاد والأدب والـ... ما هذا الكتاب الغريب؟ كتاب يقبعُ في الرف السفلي في المكتبة يُشبه كتب التراث القديمة، غِلافه عتيقٌ كأن عمره مئات السنين مُغطى بطبقاتٍ من التراب تُغطي عنوانه. أوراقه كأوراق البردي والمخطوطات القديمة. أثار فضولي فمددت يدي لأخذه ونفخت على غِلافه لأزيل التراب وأكتشف عنوانه.. «كتابك أنت» عنوانٌ غريبٌ لكتابٍ غريبٍ.. أبحثُ عن اسم المؤلف فلا أجدُ شيئًا.

أفتحُ الكتاب وأتصفحه في سرعةٍ، لا توجد به كلماتٌ، كله عبارةٌ عن رسوماتٍ مختلفةٍ ولكن ليست كأي رسومات. رسومات لأشخاصٍ ينطقون بالحياة، كأنها صورٌ فوتوغرافيةٌ عالية الجودة

وليست رسومًا رُسمت بيدٍ بشريةٍ. أفتحُ أول صفحةٍ فأجدُ بضع كلماتٍ منقوشٌ عليها «كتابك أنت.. رحلتك من الميلاد إلى أن تُقابل رب العباد»، أقلب الصفحة لأجد الرسم الأول، رجلًا وامرأةً يبتسمان في سعادةٍ ويحملان طفلًا رضيعًا. ما هذا؟ إنهما أبي وأمي في شبابهما وهذا الطفل هو انا. أقلب الصفحة في سرعةٍ لأرى الرسم الثاني، كبرت قليلًا وأجلس في حديقة فيلتنا القديمة مع أبي وأمي وبجانبي كلبي صديقي الوفي. تبًّا لك يا عماه، كنا أسعد أسرة ودمرتنا بطمعك. رسمٌ آخر لنا عندما كنا في رحلةٍ مع أهلي إلى الخارج، إحدى الرحلات التي اعتاد والدي رحمه الله أن يُسافرها معنا كل عام لنرتاح من عناء السنة الفائتة من دراسةٍ وعملٍ.

بعدها رسم لوالدي وعمي يحتضنان بعضهما في إحدى المناسبات، ابتسامة عمي ونظراته كنظرات أفعى تربضُ في الرمال لتتربص بضحاياها.

وهنا وأنا في مدرستي الخاصة الباهظة التكاليف التي كنت أحبها كثيرًا وكان لدي فيها أصدقاء كثيرون، كانت مدرسة مليئة بالأنشطة والرحلات.

آه من تلك الرسمة، رسمة لأبي وهو مريضٌ في المستشفى بعد أن أصابته أزمةٌ قلبيةٌ مفاجئةٌ وحوله أمي وعمي وأنا معهم والتأثر يبدو على وجوهنا.

بعدها عزاء والدي والسواد يملأ المكان وأمي منهارةٌ من البكاء. والدتي تتشاجرُ مع عمي على الميراث، أتذكر هذا اليوم جيدًا. كيف يعرف هذا الكتاب العجيب كل هذه الأشياء.

هـذا أنـا في مدرسـتي الحكوميـة الجديـدة، أجلـسُ وحيـدًا لا أحـد بجانبـي، لم أسـتطع التأقلـم في تلـك المدرسـة، حتـى عندمـا كنـتُ أحـاول التعـرف عـلى أصدقـاء جـدد كانـوا يلفظوننـي دائمًا، كانـوا يُعاملوننـي كأني كائـنٌ فضائـي غريـب عنهـم. يـاااااه، كنـتُ نسـيت هـذه الفتـاة، كانـت الوحيـدة التـي تحنـو عـليَّ مـن بـين جميـع التلاميـذ ولكنـي لم أعرهـا اهتمامًـا أبـدًا. خفـت أن يقـول أقـراني أني لا أصاحـب سـوى الفتيـات. كيـف علـم كاتـبُ الكتـاب بهـذه التفاصيـل التـي كـدت أنسـاها. أرى أمـي وهـي تدخـل منزلنـا المتواضـع حاملـة بعـض الطعـام البسـيط الـذي كان يسـد جوعنـا بالـكاد. هـذا مشـهد أول يـوم لي في الجامعـة، نفـس الملابـس التـي كنـتُ أرتديهـا يومهـا فعـلًا، أتذكرهـا جيـدًا لأننـي كنـت أضعهـا عـلى سريـري قبلهـا بأسـبوعٍ أتأملهـا كل يـوم راجيًـا أن يـأتي هـذا اليـوم بسرعـة لأشـعر أننـي كـبرتُ وتسـتطيع أمـي أن تعتمـد عـليَّ بعـد طـول تعـب. إنهـا هنـد حبيبتـي وزوجتـي، هـذا أول لقـاء بيننـا، كنـتُ قـد نسـيته بالطبـع، فلـم تتطـور عَلاقتنـا إلى حـب وإعجـابٍ إلا بعـد فـترةٍ مـن تعارفنـا. هـذا الكتـاب يعـرفُ أشـياء أنـا لا أتذكرهـا تمامًـا.

هـذا أنـا مـع أولادي وأمـي في آخـر عيـد أم مـرَّ علينـا منـذ شـهور. أولادي الذيـن أحـاول بقـدر الإمـكان أن أجعلهـم يعيشـون عيشـةً كريمـةً ولكـن ضيـق ذات اليـد ومرتبـي البسـيط لا يتيحـون لي ذلـك ابـدًا. يـاااه يـا عـماه، لـو لم يعمـي عينيـك الطمـع لـكان الحـال غـير الحـال ولكنـتُ أعيـشُ أنـا وزوجتـي وأمـي وأولادي حيـاة لا نلقـي فيهـا بـالًا للغـد بمصاريفـه وهمومـه. طمعـك دمرنـا يـا عمـي، ملايينـك تمـلأ خزائنـك وملاليمنـا تمـلأ جيوبنـا.

أقلب الصفحة فأجد رسمًا لي الآن وأنا جالسٌ في غرفة المكتب وأتصفح هذا الكتاب الغريب. ما هذا؟ لم ينته الكتاب، لا يزال هناك بضع صفحات أخرى. أقلب الصفحة في فضولٍ وأجد المفاجأة... خزانة عمي الموجودة أمامي الآن مفتوحة وأنا أمسك برقبة عمي من الخلف وأطعنه في قلبه بقطاعة الورق الذهبية الملقاة على المكتب. ماذا يحدث؟ سأقتل عمي؟ سأضيع مستقبلي ومستقبل أولادي من أجل لحظة غضبٍ؟ ماذا سيقول لي عمي يجعلني أقدم على ما لم أفكر به أبدًا؟! طالما أردت الانتقام منه لما فعله بنا ولكن لم يصل تفكيري أبدًا إلى القتل. الصفحة التالية بالتأكيد ستكون رسمتي وأنا ببدلة الإعدام. لا، لا إعدام ولا شيء. أجلس في حديقة فيلا وارفة الأشجار وحولي الخدم يقدمون لي أطايب الطعام.

مشهد آخر وأنا متقدم في العمر عدة سنوات وسط أبنائي في أحد المصايف الفاخرة.

باقي آخر صفحتين. الصفحة قبل الأخيرة أجدني كهلًا مستلقى في سريرٍ مغمض العينين والجميع يبكونني.

وجاءت لحظة الصفحة الأخيرة... قلبت الصفحة في توجسٍ مشوبٍ بالحذر. ملامح وجهي مليئة بالرعب والخوف والنيران حولي في كل مكانٍ وزبانية الجحيم يضربونني بالمطارق الحديدية. إذن فهذا هو مصيري المحتوم، جهنم وبئس المصير. إذا كان هذا مصيري الذي لا فرار منه ولن يقبض عليَّ بعد قتل عمي وسأعيشُ حتى أصبح كهلًا عجوزًا فلِمَ لا؟ لِمَ لا أسترجع حقي وأعيش ما تبقى لي من عمر منعمًا مرفهًا قبل أن يأتي عليَّ هذا اليوم الذي لن أرى بعده نعيمًا أبدًا.

أيام عمي في الدنيا معدودة كما قال الأطباء فما المشكلة أن يموت قبل ميعاده بأيامٍ وأستمتع أنا بأموال أبي المغتصبة؟

يدخل عمي عليَّ أخيرًا غرفة المكتب.

– أهلًا يا عمي كيف حالك؟ أخيرًا تذكرت أن لك ابن أخ.

– لم آت بك لتلومني، أنت تعرفُ ظروفَ مرضي الأخيرة فأريد أن أخلص ضميري أمام الله وأعطيك حقك في ميراث أبيك. سأعطيك خمسين ألف جنيه حقك أنت وأمك.

– خمسين ألف جنيه؟ أنا حقي ملايين نصيب أبي في الشركة؟

– ملايين؟ أتظننا نتاجر في المخدرات؟ أبوك كان يسحب نقودًا من نصيبه في الشركة كل فترةٍ حتى أصبح مديونًا لي عندما مات. أنا أعطيك تلك النقود لأنك ابن أخي فقط لا غير. ستأخذها وترحل أم لا؟

– سآخذها يا عمي.

ذهب عمي نحو الخزانة الضخمة خلف كرسي المكتب وضغط على الأرقام السرية ففتحت الخزانة، الخزانة مليئة بالأموال، مليئة بأموالي التي ينعم هو وأولاده بها ويتركني أنا وأمي وأولادي لا نجد قوت يومنا. قبل أن يمد يده داخل الخزانة ليُعطيني الفتات أمسك بقطاعة الورق الحادة وأمسكه من الخلف وأضع يدي على فمه وأغرسها في قلبه. يُحاول مقاومتي ولكن سنه المتقدمة ومرضه يمنعونه، لا أتركه حتى تتوقف مقاومته وألقيه على الأرض جثة هامدة وأجمع كل الأموال الموجودة في الخزانة المفتوحة على مصراعيها أمامي وألقي عليه نظرة أخيرة وأفر هاربًا.

فجأةً يحترق الكتابُ الغامضُ وتشتعل به النيران ويخرج منه دخانٌ كثيفٌ يتكثف ببطء ليتشكل منه شيطان مارد، ينظر باستهزاء لجثة العم المضرجة في الدماء وألقى بصره نحو القاتل وهو يهرب ويضحك ضحكةً عاليةً ساخرةً وقال:

أيها الساذج الأبله، هل ظننت أن أحدًا يعلم الغيب سوى ربي وربك؟ كنت تتساءل عمن ألف هذا الكتاب، إنه أنا أيها الإنسي الضعيف. رسمت حياتك التي صاحبتك فيها لحظةً بلحظةٍ حتى اليوم عندما دخلت هذه الغرفة وأمسكت بالكتاب. أما ما بعد ذلك فكان هو ما أتمناه لك، كان هو الفخ الذي نصبته لك، شَرَك ماهر أعددته لك لأزيد ضحية جديدة إلى قائمة ضحاياي التي لم ولن تنتهي حتى تقوم الساعة. جعلتك تظن أنك هالكٌ لا محالة وأنك ستهربُ من جريمتك النكراء وتستمتع بالأموال. ما أدراني ما سيحدث لك. قد يكون قبض عليك بالفعل أو غدًا أو بعد غد. لا يهمني مصيرك في تلك الدنيا، ما يهمني هو نجاحي في مهمتي معك لتصاحبني في عذاب جهنم. لن أذهبَ هناك وحدي، أنت وأمثالك من ضعافِ النفوس ستكونون حطب جهنم معي أنا وقبيلتي. فلا تلمني ولُم نفسك أيها الإنسان. فأنا ليس لي سلطانٌ عليك سوى أن أوسوس لك وأزين لك الحرام وأجد لك مبرراتٍ لفعله وها قد نجحت معك نجاحًا باهرًا لم أتوقعه أبدًا. إلى اللقاء في الجحيم قريبًا....

***

خَوَاطِرُ شَيْطَانِيَّةٌ

أنا الشيطانُ الأعظم. ادعوني إبليس ادعوني لوسيفر، بعلزبول، أي لقب لا يهم. أنا الوسواسُ الذي أزين لابن آدم الشرور والشهوات وأخنس وأختفي عندما يذكر الله. أنا قرين الانسان منذ بدء الخليقة منذ أن خلق الله هذا الكائن الطيني الضعيف من صلصالٍ كالفخار قابلٍ للكسر كإرادته الضعيفة التي أكسرها بقوتي وقدرتي رغم أن كيدي ضعيفٌ ولا أفعل شيئًا سوى أن أدعوهم للمعصية فيستجيبوا لي ثم يأتون في الدنيا يلومونني على كل شرورهم ويوم القيامة يلومونني على معاصيهم. إنها نفسك أيها الإنسان هي التي تتبعني وتترك وعد الله الحق. هل مِن عاقلٍ يترك طريق الله وخيراته وجناته ويتبع وعودي الزائفة وخطواتي التي تؤدي إلى الهلاك الأعظم؟ تنجح خططي الماكرة معكم منذ أبيكم آدم وأمكم حواء، كانا في أجمل الجنان ولم يحتاجا مني سوى بضع كلمات لتبدأ أول معصية في التاريخ، لم أقل لهما سوى أني أعرفُ سر الخلود والمُلك الذي لا يبلى، فأكلا من الشجرة فبدت لهما عوراتهما ولم يجدا سوى أوراق الشجر ليستترا بها. أي مُلك كانا يريدانه

ورب العالمين أعطاهما كل شيء ما عدا الأكل من شجرةٍ واحدةٍ؟ ولم يسلم أبناؤهما من وسوستي، فكانت أول جريمة قتل نابعة من الغيرة حين تُقبل من هابيل قربانه ولم يُتقبل قربان أخيه قابيل فقتله. سفك دم أخيه بسبب كلماتي له. يا لسحر الكلمات، تسحر نفوسكم أفضل من سحرة فرعون المهرة. فرعون الذي زينت له الدنيا وأقنعته بألوهيته. إله؟! هذا البشري الضعيف الذي أخرجني من رحمة الله وعبادته بعد أن كنتُ من المُقربين يُعطي نفسه صفات الألوهية بتلك البساطة؟ حاشا لله منكم أيها الإنسيين. يقتل ويذبح ويصلب بني إسرائيل من خِلافٍ لاتباعهم موسى النبي ويُطاردهم ولا يتوب إلا والمياه تبلغ حلقومه ويحضر له ملك الموت عندها يقول آمنت برب موسى وهارون. الآن أيها الفاجر تبغي التوبة؟ أين كان عقلك من قبل؟ أتلومني أنا أيضًا على كفرك؟ أنا فقط أقول لك اكفر فلما تكفر أتبرأ منك فأنا أخاف الله رب العالمين. خالقي وخالقك وخالق كل شيء. أنا أضعف من أن أكون السبب في كل تلك المعاصي التي تملأ الدنيا منذ الأزل. إنها نفوسكم الأمَّارة بالسوء التي تفعل وتفكر في أشياء أشعر بجهلي وقلة حيلتي أمامها. أقف حائرًا كيف تفكرون في تلك الآلاعيب الشيطانية! وتخرج منها كالشَّعرة من العجين ويقولون إنه الشيطان. الشيطان يتعلم منكم أيتها النفوس الخبيثة الدنيئة. إذا كنت بتلك القوة والبأس ما فلت من تحت يدي أحدٌ أبدًا. لكانت جهنم تئِّن من كثرة ساكنيها ولكن الجنة التي لن أشم ريحها ولو من على بُعد آلاف الأميال بسببك يا ابن آدم مليئة بالتقاة الذين قاوموني ولم أفلح معهم وهذبوا نفوسهم وروَّضوها لتطيعهم وتصبح جيادًا

مستأنسةً بدلًا من تلك الخيول الجامحة التي تجري بهم إلى الهلاك. المال من أكثر مداخلي معكم نجاحًا. أستطيع من خلاله التفرقة بين الأخ وأخيه وحتى بين الأب وابنه. صراع على ميراث، خلاف على شراكة في لحظة غضب أحوله إلى عداوةٍ بالغةٍ قد تصل إلى القتل وإزهاق الأرواح. أملأ نفوس أصحاب الأموال بالكبر حتى يظنوا أنهم فوق البشر، وأغرس في نفوس الجميع أن المال هو الطريق الوحيد للسعادة وأستمتع بمشاهدة جريهم الحثيث عليه وينسون سبيل الله وسبيل الرشاد. من يملك المال أجعله يظن أنما أوتيه على علم عنده كما فعلتُ مع قارون أغنى أغنياء الدنيا الذي كانت مفاتيح خزائنه فقط لا يستطيع حملها أقوى الرجال وظن أن الفضل له. من أين لك هذا أيها الضعيف التافه الطيني؟ إنه رزقك من خزائن الله الذي كان يملأ قلوب من حولك بالحسد والحقد عليك حتى خسفت بك الأرض فأصبحت ساعتها كالكلب الأجرب يتبرأ الجميع منه. ألم يكن حُلمكم منذ لحظاتٍ أن تكونوا مثله؟ المال من أفضل أدواتي لأحرق بذور النقاء بداخلكم وأجعلها سوداء عقيمة لا ينبت منها الخير مرةً أخرى. وآه من فتنة النساء.. أخرب بيوتًا وأدمر أسرًا وأشرد أطفالًا من أجل نشوةٍ ومتعةٍ حيوانيةٍ لحظيةٍ ونزوةٍ عابرةٍ. أزين لك طريق المعصية بكل ما استطعت من زينةٍ وشبهاتٍ وتبريراتٍ وأقول لك تفضل وعندما تختاره أصبح أنا المُخطئ. أين إرادتك وقدرتك على الرفض؟ ولكن أتعلمون، تلك القوى الخارقة الزائفة التي تُلصقونها بي تُفيدني كثيرًا في رحلتي الأزلية معكم. كل شيء خبيث في الحياة وما أكثره تنسبونه إليَّ مما يُعطيني قوةً أكثر لجركم معي إلى الدرك الاسفل

المليء بالعذاب والنيران والماء المغلي الذي لا يوجد غيره لنشربه فيقطع أمعاءنا وشجر الزقوم المُر المليء بالأشواك وكثير من صنوف العذاب التي لا تخطر على قلب بشر حتى إن أخف أهل النار عذابًا ستُوضع جمرةٌ ملتهبةٌ على قدمه تغلي منها دماغه ولن يُخفف عنا العذاب أننا جميعًا مشتركون فيه وتكون غاية أمانينا أن يُخفف عنا فقط يومًا واحدًا من العذاب، كل هذا ونحن نرى نعيم أهل الجنة وثمارها وأشجارها الوارفة وأنهار العسل واللبن وسعادتهم التي تفوق كل المتع لرؤيتهم لوجه الله سبحانه. أنتم محرومون من كل هذا لأنكم اتبعتموني أنا. يا لك من جبَّارٍ أيها الإنسان، تُجادل يوم القيامة مع خالقك وتُنكر معاصيك؟ تُجادل مع العليم الذي لا تخفى عليه خافية؟ تُجادل على كتابك الذي لا يُغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها حتى تشهد عليك يدك وجلدك وقدمك خجلًا من الكذب أمام الإله القدير. سأظل أوسوس لكم وأخدعكم حتى تقوم الساعة وتكونوا معي في الجحيم يا رفقاء التعاسة الأبدية.

- يلا يا درش ميعاد جلسة الكهربا.

- ما بيردش عليك برضه، هو المرة دي فاكر نفسه مين؟

- أنا عارف، عمال يقول إبليس وبعلزبول وكلام غريب كده، عشان كده الدكتور إداله جلسة زيادة . الأسبوع اللي فات كان عامل فيها الممثل مظهر أبو النجا وماشي في المستشفي عمال يقول ياااا حلاااوة.

***

ماذا تفعلُ لو كنتَ مكاني؟

لا يزال عريسًا جديدًا. نشأ في أسرةٍ فقيرةٍ، منذ صغره وهو يعلم أن هذا ليس مكانه، ليس هذا ما خُلق له. الفقر والعوز لن يكونا مصيره الأبدي، سيُصبح غنيًّا يسبح في أمواله، لم يكن كأخيه قليل الطموح القانع بما لديه، ليست لديه تطلعات حتى ليخرج من الحارة التي كانوا يسكنون بها؛ أما هو فلم يكن يرى في حارتهم سوى الطريق إلى الشارع الكبير والدنيا المجنونة والثروة الآتية لا ريب فيها. كان يُتاجر ويُقايض في كل شيء منذ صغره، ترعرع على التجارة وكان يكسب أكثر من والده الموظف البسيط وعمره لا يزال ثلاثة عشر عامًا. ترك التعليم منذ الابتدائية ولم يندم على قراره هذا أبدًا، شيئًا فشيئًا كبر اسمه في السوق وأصبح من كبار مستوردي قطع غيار السيارات، ظل وحيدًا لا يُفكر في أي شيء سوى تنمية تجارته حتى وصل إلى الأربعين من عمره، شعر وقتها أنه يُريد أحدًا بجانبه يملأ عليه حياته ويُعطيها معنى آخر غير النقود والعمل والصفقات. أخت صديقه، شابةٌ جميلةٌ من منزلٍ محترمٍ، بنت أصول كما يقولون،

فَهِمَ من أخيها أنها ترفض الزواج رفضًا قاطعًا مما يُسبب الخلافات الدائمة بينهما؛ توافق أخيرًا على مقابلته، تُعامله في تحفظ في البداية، الخجل يفعل أكثر من ذلك، تغيرت فجأة، بعد أن كانت تفعل ما بوسعها لتأجيل الزواج بدعوى أنهما لم يعرفا بعضًا جيدًا أصبحت تستعجله لحجز القاعة. ولكن الشقة لم تنته بعد. لا يهم نتزوج في شقة إيجار. ماذا حلَّ بها؟ أهو سهم كيوبيد أصاب قلبها وملأه بالحب تجاهه فجأة؟ يتزوجان في حفل زفاف ضخم يحضره كبراء البلد، وأكثر من فرح له هو أخوه الذي لا يزال قابعًا في مكانه لم يتحرك قيد أنملة، أبناؤه الخمسة مبهورون بما يجدونه أمامهم من غناء ورقص وطعام لم يتذوقوا مثله من قبل.

بعد أول شهر تُخبره بحملها، لا يُصدق نفسه من الفرحة، أبهذه السهولة يُصبح أبًا؟ أخفى الخبر خوفًا من الحسد، فزوجته حاملٌ في توءم، ولد وبنت ولدتهما بعد سبعة أشهر. أيتها اللعينة عديمة الشرف، إنه لا يستطيع الإنجاب، زوجك الغافل المخدوع لا يُنجب، من أين جئتِ بهذا التوءم؟ مَن عشيقك الغادر الذي كنت ترفضين الزواج من أحدٍ بسبب وعوده المعسولة لك بأنك حياته كلها وسيظل طوال العمر بجانبك. وحتى تحت ضغط وإلحاح أخيك وافقتِ على الخطبة ولكن ظللت تُعاملينه ببرودٍ ملحوظٍ. ها هو ذا ما أن بُحت له بحملك حتى غدر بك وتركك في مصيبتك وحدك بعد أن أخذ منك أعز ما تملكين، أفقدك عذريتك وأعادها إليك مرةً أخرى باتفاقه مع طبيبٍ معدوم الضمير لعمل عمليةٍ لتعودي عذراء في نظر الناس ثانية. بعدها علمت ألا مخرج لك إلا بالزواج سريعًا حتى لا ينكشف

أمرك، تلدين قبل موعدك بشهرين؟ لا يهم، تحدث كثيرًا الولادة في الشهر السابع. وتلدينها وتنسبيها للمسكين الذي لا يشك في أمرك ولو لجزءٍ من الثانية، بل بالعكس يشعر بقمة السعادة والفرح، يمتلئ بالنشوة ويُصبح أسعد إنسان في العالم. أرى سؤالًا يتبادر إلى ذهنك أيها القارئ، من أنا وكيف علمت بتلك الأسرار التي لا يعلمها سوى أصحابها؟ ما لك أنت من أنا وكيف علمت؟ ما هذا الفضول القاتل الذي يُصيبك؟ هل سيزيد من عمرك أو ينقص إذا علمت؟ قد أكون طبيب العائلة رأيت تحاليله وأخفيت الخبر عنه خوفًا على مشاعره وبعد أن علمت بأمر حملها بحثت وراءها؛ قد أكون شخصًا سمع مكالمةً أو رأى رسالةً بينها وبين عشيقها فعلم بأمرهما؛ قد أكون أنا العشيق ذاته. ماذا سيفرق معك؟ أنترك تلك المصيبة التي حدثت وتداعياتها المؤسفة ونتساءل عن كيف وصلت لعلمي تلك المعلومات؟ ماذا سيفيدك أو يضرك؟ ما هذا الذي أقول؟! أنا آسفٌ قارئي العزيز على انفعالي ولكني متأثرٌ جدًّا بما حدث، أستميحك عذرًا أن تغفر لي عصبيتي معك، فالسر الآن معي وحدي، أنا فقط أستطيع أن أدمر حيواتٍ أو أتركها في سلامٍ، الحيرة تُصيبني بدوارٍ شديدٍ، هل أكشف سري الأليم أم أكتمه في نفسي؟ ما ذنب هذا الزوج المخدوع المسكين أن يُصدم صدمة عمره في زوجته والأكثر في أن ابنيْه اللذين فرح بهما فرحًا لا مثيل له ليسا من صُلبه؟ كان كطفلٍ صغيرٍ في سنهما يلعب معهما ويلهو، يقدمهما لكل زواره بفخرٍ شديدٍ كأنه يقدم لهم أميرًا وأميرةً متوجيْن على قلبه؟ أدمر حياته إلى الأبد بلا ذنبٍ اقترفه سوى أنه سعى لتكوين أسرةٍ صغيرةٍ سعيدةٍ تُعوضه عن سنوات شقائه؟

وكيف أضمن ردة فعله تجاه الحقيقة المُرة التي سأكشفها له؟ ماذا لو تهور وقتلها؟ أحوله بكلمةٍ مني من زوجٍ وأب مثالي وإنسانٍ مُكافحٍ إلى مجرمٍ قاتلٍ مصيره السجن والإعدام؟ ما ذنب الابنان خاصة الابنة أن يُوصما بالعار طوال عمرهما بسبب استهتار أمهما اللعوب التي لم تراعِ إلَّا ولا ذمةً في زوجها وابنيها اللذين سعت لخداعهم من أجل التغطية على نزوةٍ عابرةٍ لم تفكر في عواقبها؟ أأحملهم أوزارًا ليست بأوزارهم وحمول جبال ثقيلة على ظهورهم إلى أبد الآبدين بلا ذنبٍ اقترفوه؟ أم أكتم تلك الأسرار اللعينة وأستر هذا البيت وتلك العائلة؟ ولكني هكذا أكون أعطيت تلك الخائنة كل شيء، زوجًا مُحبًّا مخلصًا، ابنيْن من صُلبها وثروةً هائلةً تتمتع بها طيلة حياتها. وبعد عُمرٍ طويلٍ بعد وفاة زوجها، ألن يرثه ولداها بلا وجه حق؟ وأبناء أخيه الذين يعيشون في مستنقع فقرهم بسبب استكانة أبيهم وقلة طموحه وعدم رغبته في بذل المجهود ليعيشوا حياةً كريمةً، ألن أحرمهم من أموالٍ طائلةٍ هي في الأصل حقهم ستغير حياتهم إلى الأفضل حتمًا؟ أأحمل إثم وذنب هذا الميراث الذي سيذهب إلى من لا يستحقه؟ أفصح عن سري أم أكتمه؟ عزيزي القارئ- أرجو ألا تكون لا تزال غاضبًا مني- ماذا تفعل لو كنت مكاني؟

***

إكرامُ المَيِّت

يا أهالي المنطقة الكرام، توجد صلاة جنازة بعد صلاة الظهر.

سمعتُ هذا النداء وأنا في طريقي إلى المنزل، مُتعب أنا بعد مشوار كثيرة قضيتها منذ الصباح، أريد العودة للبيت لأنام، ولكن صلاة الجنازة ثوابها كبير مثل جبل أُحُد حسنات عسى أن يرزقني الله عبادًا يخلصون لي الدعاء حين أكون مكانه. أدخل لأتوضأ وأصلي ركعتيْ السنة، يُقيم المؤذن للصلاة فنصلي الظهر وننتظر قليلًا قبل أن نبدأ في صلاة الجنازة، أنظر إلى الكفن الموجود بجانبي، هذه نهايتنا، ملفوفين في مترٍ من القماش لا حول لنا ولا قوة، يتركنا الأهل والأحباب ونجد أنفسنا وحدنا بلا أنيسٍ ولا جليسٍ.

يقوم ابن المُتوفى ليُصلي بنا.

– من فضلكم يا جماعة ما حدش هيصلي عليه.

تصدر همهماتٌ من كل المصلين. ماذا يعني لن يُصلي عليه أحدٌ، مَن هذا الرجل، كيف يمنع الصلاة في بيت الله؟!

مالوش لازمة الكلام ده يا طارق، الكلام ده بعدين مش في وسط

الناس مش عايزين فضايح. قالها ابن المتوفى موجهًا كلامه للشخص الذي لا يُريدنا أن نُصلي.

- فضايح إنتوا خليتوا فيها فضايح يا نصابين يا حرامية.

يحمرُّ وجه أبناء المتوفى في غضبٍ ويتجهون لطارق ليتشاجروا معه.

- صلوا على النبي يا جماعة ما ينفعش كده داحنا في جامع ما يصحش كده اطلعوا اتخانقوا بره، احترموا حتى حُرمة الميت اللي لسه ما دخلش التربة ده.

- بقولكوا أهو ما حدِّش هيصلي عليه غير لما آخد حقي، الرجل ده مديون لي بخمسة آلاف جنيه وولاده عارفين ومطنشين، مش فارق معاهم إن أباهم يتشوي في نار جهنم المهم ما يدفعوش مليم الحرامية الإيحة دول.

يقوم رجلٌ كبيرٌ يبدو عليه الوقار ويصمت الجميع لقيامه، يبدو أنه من كبراء المنطقة.

- الشيخ عبده قام لهم، كده اتحلت ده رجل محترم ما تطلعش العيبة من بقه.

- في إيه بس يا جماعة، استهدوا بالله وفهمونا بالراحة إيه الموضوع.

- ما فيش يا حاج، الرجل اللي ميت أدامكوا ده خد مني خمسة آلاف جنيه وقال لي إن ابنه الكبير بيفهم في البورصة وهيشغلهوملي وهيبقوا عشرة بعد ست شهور، تاني يوم لقيت ابنه ده جايب أوضة نوم وبيطلعها بيتهم أصله كان بيجهز عشان يتجوز، قلت يمكن

صدفة بس أنا عارف والمنطقة كلها كانت عارفه إنه بقاله شهور مش عارف يجيب العفش، فات شهر شهرين ها يا حاج إيه أخبار الفلوس، زي الفل يا ابني ما تقلقش فلوسك في إيد أمينة، يا خوفي من أمينة دي، الستة شهور خلصوا، رحتله قالي معلش يا ابني الأسهم بتاعتك خسرت وفلوسك ضاعت كلها، عملتلهم فضيحة في المنطقة بس ما فيش فايدة ما هو أصل وشهم مكشوف وما بيتكسفوش ولا يحسوا على دمهم، كل يوم أنطلهم في البيت وفي دكان أبوهم ولا كأن، يشتموني ويضربوني ويمشوني بخناقة، أنا كده طلعت من المولد بلا حمص ومش متَّعتع من هنا ولا حدّ هيصلي على النصاب ده غير لما آخد فلوسي منهم.

– وإنتوا رأيكوا إيه في الكلام ده؟

– يا حاج الرجل ده مفتري، أيوه أبويا الله يرحمه خد منه الفلوس بس البورصة وقعت نعمله إيه طه، وكل يوم يعملنا شبورة قلق كده وفضايح وإحنا ناس على قدّ حالنا وماشيين جنب الحيط وعندنا ولايا، نجيبلوا منين يعني نسرق ولا ننهب.

– على قدّ حالكوا إيه دانتوا محل أبوكوا شغال الله ينور والفلوس على قلبكوا قد كده.

– إنت عارف إن إحنا صرفنا آخر مليم معانا على علاج أبونا الكام شهر اللي فاتوا ولا كنت عايزنا نسيبه يتعذب في آخر أيامه.

– ما ليش فيه، أنا عايز فلوسي اللي الراجل اللي راقد ده الله يجحمه خدها مني وإلا ما فيش صلاة عليه خليه هنا لحدّ ما ريحته تطلع.

يـاااااه عـلى تلـك النقـود التـي تفعـل هـذا في البـشر، تجعـل النـاس يتشـاجرون في بيـت الله وفي حـضرة جـلال وهيبـة المـوت، في حـضرة جثة المتـوفى التـي لم يـبرد دمهـا بعـد.

قـام الحـاج الوقـور وأمسـك بميكروفـون المسـجد: يـا أهـل المنطقـة، لازم نحـل الموضـوع ده عشـان الميـت مالـوش ذنـب في الحكايـة والخناقـة اللـي بتحصـل دي، الرجـل ده لازم يتدفعلـه دينـه عشـان هـو دلوقتـي بـين إيديـن رب كريـم وخلـص مـن الدنيـا والفلـوس والهـمّ اللـي إحنـا فيـه ده، في واحـد هيعـدي عليكـوا دلوقتـي بصنـدوق صغـير كل واحـد يدفـع اللـي فيـه النصيـب عشـان نخلـص المشـكلة دي ونصلـي عـلى الراجـل ده يمكـن ربنـا يغفرلـه بصدقاتكـوا ويوقفلكـوا اللـي يسـدد عنكـوا ديونكـوا بعـد عمـر طويـل.

يمر خادم المسجد ليجمع من المصلين ما فيه النصيب.

– عد فلوسك كده، مرضي؟

– هـم ناقصـين ٧٠٠ جنيـه بـس عشـان خاطـرك إنـت يـا حـاج، صـلي إنـت عليـه يـا حـاج عشـان نتبـارك بيـك.

– خـلاص بـأه يـلا هنقيـم الصـلاة، صـلاة الجنـازة أربـع تكبـيرات في الأولى نقـرأ الفاتحـة والثانيـة نقـرأ النصـف الثـاني مـن التشـهد والثالثـة ندعـو للمتـوفى وهـو ذكـر كـما علمنـا والرابعـة ندعـو لعمـوم المسـلمين، الله أكـبر.

تنتهـي الصـلاة وأقـوم لأسـاعد في حمـل النعـش إلى خـارج المسـجد، إنـه ثقيـلٌ جـدًّا، هـل هـو فعـلًا كـما قـال طـارق هـذا نصَّـاب وحرامـي

وأثقلته ذنوبه، أستغفر الله العظيم ما هذا الذي أقول إنه يُحاسب الآن فليرحمه الله.

وقف الشيخ عبده أمام باب الجامع وأخذ يبحث عن أبناء المتوفى. فين ولاد الرجل ده؟ لا أحد يرد. طب فين طارق اللي دوشنا الدوشة دي كلها؟ لا يوجد أحد.

ينظر إلى الكفن فيجد جزءًا منه مفتوحًا من الجانب الأيسر ويُخرج من طرفه حجرًا كبيرًا. يُقطب حاجبيْه في تعجبٍ ويُكمل فتح الكفن فلا يجد ميتًا، الكفن مليء بالأحجار الكبيرة والطوب الأحمر. ينظر الشيخ عبده حوله مندهشًا وجميع من حوله ألجمتهم المفاجأة ويقول في غضبٍ لا يتماشى مع وقاره ورزانته المعهودة: يا ولاد الكاااااالب.

***

سُقُوطُ الأَقْنِعَةِ

مـلأت ضحكاتُـه جنبـات المـكان وسـط أصدقائـه؛ كان «ص» محبوبًـا اجتماعيًّـا مشـهورًا بخفـة ظلـه يشـع بهجتـه أينـما ذهـب؛ لا يـراه أحـدٌ إلا ويتعلـق بـه ويتمنـى صداقتـه؛ ابتسـامته السـاحرة تخطـف الألبـاب خاصـة الفتيـات مـن صديقاتـه الـلاتي يتهافتـن عليـه كلـما رأينـه بالإضافـة إلى وسـامته الشـديدة وثرائـه.

يُقابـل أصدقـاءه في الكافيـه الفخـم كل يـوم بعـد أن يفـرغ مـن عملـه ولا يعـود إلى منزلـه إلا بعـد منتصـف الليـل وينـام سريعًـا ليسـتيقظ مبكـرًا.

دخـل إلى منزلـه وأغلـق البـاب وراءه ودخـل إلى حجرتـه الخاصـة التـي لا يملـك مفتاحهـا سـواه، حتـى زوجتـه وأبنائـه لم يدخلوهـا أبـدًا.

يفتـح الخزانـة السريـة وينظـر إلى محتوياتهـا، يجـول ببـصره داخلهـا حتـى يجـد بغيتـه، يخرجـه برفـقٍ شـديدٍ ويضعـه عـلى المكتـب.

يُمسـك بوجهـه، يـد مـن فـوق جبهتـه تحـت منبـت الشـعر والأخـرى مـن تحـت ذقنـه ويجـذب في عنـفٍ؛ ينتابـه ألمٌ شـديدٌ لم يعتـده أبـدًا رغـم أنـه يفعـل مـا يفعلـه كل يـوم مـرة أو مرتـين.

يخرج وجهه في يده، يُمسك بالقناع الذي كان يرتديه وهو يقطر بعض الدماء وقطع اللحم البشري، يمسحه بأحد المناديل ويضعه في الخزانة، ويمسك بالقناع الآخر ويضعه على وجهه ويضغط جيدًا ليثبته وخرج من الغرفة ليذهب إلى حيث تجلس زوجته.

- أحضّر لك العشاء؟

يرمقها ببرودٍ:

- لا، تناولت طعامي بعد العمل.

- أتعلم، اليوم تكلم ابننا للمرة الأولى، كدت أجن من السعادة عندما سمعته يقول...

- أنا مُتعب وعندي صداع يفتك برأسي ولستُ مُستعدًّا لسماع تلك التفاهات، سأدخل لأخلد إلى النوم.

- ولكن ابنتك لم ترك منذ يومين، وقالت لي أن أوقظها عندما تأتي.

- غدًا غدًا، لا وقت لديَّ الآن.

انهالت الدموع من عينيها الرقيقتين، لا تدري سببًا مقنعًا لتلك المعاملة التي تتلقاها منه منذ أول شهور زواجهما؛ كان أيام الخطوبة مثالًا للشاب الخلوق الوسيم خفيف الظل الذي تحسدها جميع زميلاتها عليه، كان يُعاملها كملكةٍ مُتوجةٍ، كانت نظراته مليئةً بالحنان والحب اللانهائي. مع مرور الأيام شعرت كأن ملامحه نفسها تغيرت، نظراته الحنونة أصبحت كخناجر مسمومة يغرزها في روحها المتآكلة من الحزن كل يوم، تحوَّلت من ملكةٍ لعبدةٍ له، وعاء يُفرغ فيه شهوته كل حين ثم يُعطيها ظهره ويستغرق في النوم ليتركها ودموعها تتحول لحبلٍ يكاد يخنقها مع غُصة تقف في حلقها تكاد تظهر للناظرين.

كانت تظن أن بمولد ابنتها سيتغير حاله ولكن لا حياة لمن تُنادي، نفس القسوة، كانت تشتاق إلى حبيبها القديم الذي ذهب أدراج الرياح ولم يبق منه سوى أشلائه أو بقاياه بقناعٍ قاسٍ جديدٍ.

استيقظ «س» وأيقظ زوجته في عنفٍ لتحضر له طعام الإفطار ثم ذهب إلى حجرة أسراره ليرتدي قناعًا آخر.

يذهب إلى عمله الذي يتقاضى عنه مبلغًا محترمًا؛ فقد صعد في بضع سنوات إلى أعلى المراتب التي لم يصل إليها أحدٌ من أقرانه.

ينظر إلى تصفيف شَعره في مرآة السيارة ليجد جزءًا من قناعه قد تحرك من مكانه ليظهر جزء كقطع صغير، يضع أصابعه على هذا المكان ليعيده إلى مكانه برفق ويُكمل طريقه.

يدخل إلى مقر عمله فلا يُلقي السلام على أحدٍ ولا يرد على سلام أحدٍ في طريقه إلى مكتبه وأنفه المتعجرف يعلو فوق الجميع.

يدخل عليه سكرتيره ليُبلغه أن مديره يُريده في أمرٍ مهم، يقوم من مجلسه الهادئ في سرعةٍ كأن هناك نيرانًا اندلعت في مقعده، يُمسك ببعض الملفات ويذهب إلى مكتب مديره يكاد يجري، يطرق الباب في خنوعٍ ويدخل إلى مديره منكسر الرأس منبطحًا.

- أهلًا يا «ص».

- أهلًا أهلًا سعادة المدير، شرف لي أن تطلبني اليوم.

- يا «ص»، كفَّ عن تصرفاتك تلك!

- أي تصرفات معاليك، نحن نفتخرُ أمام جميع الشركات المنافسة أن سيادتك من تدير شركتنا لتنقلها إلى مصافِّ الشركات الكبرى بعد أن كانت متعثرةً في عهد المدير السابق ولولا خبراتك لأعلنت الشركة إفلاسها.

نظر إليه المدير ضاحكًا وقال:

ستظل كما أنت لن تتغير.

- نحن تحت أمر سيادتك دائمًا.

- أريدك غدًا أن تذهب لدفع فواتير الهاتف والإنترنت واشتراك النادي وخذ بدلًا منه بعد غد إجازة.

- إجازة؟! لا لن آخذ إجازة فأنا لا أشعر بسعادتي سوى وأنا في العمل بجانب سيادتك لأتعلم منك.

- هذا ما أنتظره منك دائمًا، فلتذهب إلى مكتبك الآن.

يخرج من المكتب ليعلو رأسه المنبطح مرةً أخرى، ليعلو فوق السحاب وسط أقرانه الذين يحتقرونه ويحسدونه في ذات الوقت.

يوم إجازته الأسبوعية يخرج «ص» (هل هو «س» أم «ص»؟) من الصباح الباكر بقناعٍ جديدٍ، يتحدث إليها في الهاتف ويتفقان على المقابلة في أحد المطاعم.

- افتقدتك كثيرًا.

- وأنا أيضًا يا عزيزتي، أنا أحسب الساعات والدقائق منذ لقائنا إلى أن نلتقي مرة أخرى، رؤيتك هي كل بهجتي وسعادتي في الحياة.

- نفس الكلام تقوله لي وعندما أخبرك بأمر زواجنا تتهرب.

- أنا؟ أنا أتهرب من حبيبتي التي لا أستطيع أن أستغني عنها ولو للحظة؟ كل ما في الأمر أنك تعرفين ظروف زواجي البائس ولكن ما أن أطلقها سنتزوج على الفور.

- أحلم بهذا اليوم.

– سأحققه لك قريبًا يا قلبي، هيا بنا إلى الشقة .

ويذهبان معًا إلى الشقة المفروشة التي أجَّراها منذ فترة ليلتقيا بها أسبوعيًّا بعيدًا عن أعين الناس.

«موعد اجتماع اتحاد ملاك العمارة بعد صلاة الجمعة غدًا»

يلمح تلك اللافتة وهو صاعدٌ إلى منزله، ينام ويستيقظ ليرتدي قناعًا آخر ليصلي الجمعة في خشوعٍ شديدٍ ويذهب إلى الاجتماع.

– أهلًا بك سيد «ص».

يرد عليهم وابتسامة خجولة تملأ وجهه:

– أهلًا بكم.

– نبدأ الاجتماع، نريد إبلاغكم أن جارنا الذي كان يشغل أمين الصندوق قد ترك المنزل وبهذا أصبح المنصب شاغرًا ولذا نريد اختيار شخصٍ آخر يحل مكانه.

لم يكد رئيس اتحاد الملاك أن يُنهي عبارته حتى ارتفعت أصوات الجميع تنطق باسمٍ واحدٍ.

– السيد «ص» بالطبع هو أحق واحد بهذا المنصب، نحن جميعًا نثق بأخلاقه العالية وأمانته، فهو لا يتوانى عن فعل أي شيء لمصلحة العمارة وسكانها.

يبتسم في خجل قائلًا:

إنه شرفٌ لي أن أتولى هذا المنصب في ظل وجود من هو أجدر مني بهذا المنصب وأعدكم أنني سأكون على قدر المسئولية التي أوليتموها إليَّ وأشكركم على كلامكم الرائع الذي يزيد من مسئوليتي؛ شكرًا جزيلًا لكم فأنا أقل بكثير من كل ما قلتموه في حقي.

ينظرون إليه جميعًا في إعجابٍ لتواضعه ودماثة أخلاقه التي طالما عرفوها عنه.

ينزع قناعه متألمًا ويضعه على زجاج المكتب ويهم بفتح خزانة الأقنعة حتى يسمع صوت صراخ وصياح من زوجته وأبنائه.

- حريق، حريق.. انجدنا يا «س».

يخرج مُسرعًا ليجد النار اشتعلت من أحد أسلاك الكهرباء فيمسك بطفله الصغير وتمسك زوجته بابنتهما وينطلقان إلى خارج الشقة إلى مدخل العمارة مع بقية السكان ينتظرون سيارات المطافي لتخمد الحريق.

فجأةً يجد الجميع ينظرون إليه في رعبٍ ويفرون من أمامه وهم يصرخون، يشعر بنقط الدماء تتساقط من وجهه على ملابسه فيضع إصبعه على وجهه ليجده مليئًا بالدم.

تبًّا لقد نسي في غمرة الهرج والمرج أن يلبس قناعه فظهرت دمامته وقبحه الذي كان يخفيه بأقنعته؛ يصعد في سرعة إلى شقته ليجد النيران قد التهمت غرفته الخاصة فينزل مسرعًا ويبتعد بعيدًا بلا أقنعةٍ تخبئ وجهه، يهرب بعيدًا عن كل الناس بلا هويةٍ وبلا خداعٍ؛ هرب «س» أو «ص» ولم يره أحدٌ بعد ذلك، ومنذ ذلك اليوم والجميع يتأكد ألف مرة من تثبيت قناعه على وجهه بإحكام قبل أن يذهب إلى أي مكان.

***

البِليَاتشو

والآن أحبائي الأطفال مع الفقرة التي تُحبونها جميعًا، فقرة الـ..... بلياتشوووووو..

تنطلق ضحكاتُ الأطفال البريئة وتصفيقهم الحار لي، أخرج لهم بهاكياجي الثقيل المُلون وأنفي الأحمر وشَعري المُستعار وأقوم بحركاتي المُضحكة لتزداد ضحكاتهم ويملأ الفرح والبهجة ملامحهم؛ عجيبٌ أمر الدنيا، هؤلاء الأطفال هم من سيكبرون ويصبح منهم الضابط الذي سيقبض على المتهم وسيُدافع عنهم المحامي ويحكم عليه القاضي. يا ترى مَن مِن الذين يضحكون سيصبح المجرم، هذا الطفل الأشقر الذي يُمسك بيد أبيه أم هذا الأسمر الذي يحتضن أمه، ومن سيقبض عليه، الجالس في حماس في الصف الأمامي أم الخجول الجالس في الخلف؛ وهل هذا الشقي الذي يقفز في مرحٍ هو من سيُدافع عن المتهم أم سيُصبح القاضي الذي يحكم عليه؟ مع أن البراءة تملأ عيونهم الآن إلا أنه في المستقبل ستتأكل تلك البراءة شيئًا فشيئًا حتى يُصبحون مثلنا جميعًا، أشرارًا وطيبين، ناجحين وفاشلين،

فقراء وأغنياء، أوفياء وخائنين. مَن منكم سيسرق مَن؟ مَن سيطمع في من؟ من سيكذب على من؟ ماذا يحدث لكم أيها الملائكة الصغار؟ تنظرون إلى بعضكم وتضحكون في وجوه بعضكم وتُضمرون الشر لبعضكم بعد عدة سنوات أيها المنافقون. ماذا تفعل بكم الدنيا والظروف؟

كل من حولي كانوا أطفالًا مثلكم، الصحفي المرتشي والطبيب المهمل والضابط الفاسد والموظف المنافق، هل كان يتخيل أحدهم وهو يضحك ملء فيهِ على تفاهاتي أنه سيصبح ضمن هؤلاء؟ الطبيب الذي ولدكم هل كان يتخيل أنه يُمسك في يده قاتلًا أو سارقًا؟ أمكم وهي تلقمكم صدرها هل مرَّ على ذهنها أنها ترضع مرتشيًا أو فاسدًا؟!

وأنا أحاول إسعادكم أيها الفسدة المرتشون الكاذبون، لا يهمكم إن كنت حزينًا أو مهمومًا، المهم أن أرسم الضحكة على شفاهكم، أما أنا فلا أحد منكم يهتم لأمري، أنا إنسانٌ أيضًا، تلك المساحيق الملونة على وجهي تخفي بشرًا يشعر ويتألم، يحزن ويفرح، تخفي وراءها حياة الظاهر منها المرح والفرح والحركات البهلوانية المضحكة، إذا ظهرت منها طرف أحزانها استبدلوني بآخر فورًا، المهم أن تضحكوا أنتم.

أزيل شَعري المُستعار المُلون وأنفي الأحمر وأمسح المساحيق التي تُخفي وجهي الحقيقي.

عفوًا أيها الشياطين في أثواب ملائكية أنتم لا تستحقون هذا الوجه المضحك المرح، تستحقون الوجه الآخر لي.

صرخاتٌ خائفةٌ تملأ أرجاء المكان، يجري الأطفال في كل مكان، تتحول ضحكاتهم إلى دموع ويملأ الرعب قلوبهم حين أتخلى عن أقنعتي وأظهر لهم وجهي الآخر، وجهي المشوه من حريقٍ قديمٍ...

هيا يا بلياتشو.. الدور عليك.

يربت مدير السيرك على كتفي بعنفٍ فأعود لوعيي وأخرج من خيالاتي وأنظر من وراء الستار لأرى الأطفال يضحكون ويمرحون ينتظرون صعودي على المسرح لأحقق لهم البهجة والسعادة.

***

مَلَائِكَةٌ فِي النَّارِ

«يا أيها الناس لقد قضي الأمر، ها قد ظهرت العَلامة الكبرى وخرجت الشمس من مغربها، قال رسولنا الكريم إنه لا تزال تُقبل التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها، إن بالمغرب بابًا مفتوحًا للتوبة مسيرة سبعين سنة لا يُغلق حتى تطلع الشمس من نحوه، قالت السيدة عائشة إنه إذا خرج أولى الآيات، طُرِحت الأقلام وحُبست الحفظة وها هي ذي أولى الآيات في كبد السماء أمامنا؛ رُفعت الأقلام عنكم من الآن وطُويت الصحف، لا حساب لكم بعد الآن، فطوبى لمن تاب وآمن وعمل صالحًا من قبل وسحقًا للعاصين الخطائين».

ملأت تلك الكلمات شاشات التلفاز العربية من الداعية الإسلامي الشهير الذي يملأ صيته الآفاق صبيحة أن رأى الناس الشمس تُشرق من مغربها، تلك العَلامة الكبرى من علامات يوم القيامة.

انتاب الرعبُ والذعرُ الجميع ومكث الكل ينتظرون الغيب ويُتابعون الأحداث متسمِّرين أمام الشاشات والخوف والرهبة تحتل قلوبهم احتلالًا.

لم يكن يتوقع أو يتخيل أحدٌ أن يشهد تلك الأحداث، يوم القيامة بالنسبة لهم كان كالموت الذي يتيقنون من وجوده ولا يتخيلون أنهم سيواجهونه أبدًا، كل منهم يظن أنه قد يحدث لغيره ولن يُقابله هو.

بالأمس كان الجميع في عبادته ومجونه، في ذكره ولهوه، ينزلون الأسواق ويذهبون لأعمالهم ويلتقون في المقاهي وينامون ويستيقظون كأنهم سيعيشون ألف عام واليوم يُقابلون أحداثًا جسامًا لا قِبل لهم بها كانوا يقرأون عنها كأنها قصصٌ للتسلية يعلمون أنها ستحدث ولكن لقوم آخرين؛ لا يُمكن أن تحدث لهم بالطبع فمن منا يتخيل أن تُشرق عليه الشمس من مغربها أو يُقابل الدَّجال أو يشهد أيًّا من أهوال القيامة؟

تمر الأيام ويقل الطعام في البيوت فيضطر الجميعُ إلى النزول للأسواق لشراء الطعام لتخزينه لمدةٍ لا يعلمها إلا الله.

ينزل نورٌ إلى السوق ليشتري حاجاتٍ لأسرته الصغيرة؛ يسمع ضجيجًا وصراخًا فيذهب ليتفقد الأمر، يجد جاره الموظف الطيب كبير السن الذي كان يصلي معه في المسجد بانتظام يمسك بسكينٍ تقطر دمًا وأمامه جثة مضرجة في دمائها لجار آخر كان زميلًا له في العمل.

– ماذا فعلت؟ لماذا قتلته يا مجنون؟ أنا كنتُ شاهدًا على ما حدث، لقد رحب بك كثيرًا عندما قابلك واحتضنك فطعنته في ظهره من الخلف بسكينك.

– نعم قتلته، كنتُ أكرهه طوال عمري، كان يقفز في المناصب عامًا بعد عامٍ وأنا محلك سر، بسبب تملقه ونفاقه الرخيص كان

يسرقُ مجهوداتي ويترقى مكاني وينقل كلامًا غير صحيح على لساني للمديرين فيغضبون عليَّ أكثر ثم يُقابلني كالأفعى الرقطاء بابتسامةٍ بريئةٍ كمن يقتل البريء ويتبع جنازته، وأمام الناس فهو صديقي الصدوق ولا أستطيع أن أبتعد عن طريقه أو أفضحه لكلمته المسموعة عندي في العمل؛ آخر ترقيةٍ له ذهبتُ لأبارك له مُجبرًا بالطبع ظللت منتظرًا أكثر من ساعتين والجميع يدخل مهنئًا ويخرج إلا أنا لم يسمح لي سكرتيره بمقابلته حتى شعرتُ بإهانةٍ شديدةٍ ومشيت غاضبًا، فوجئت ثاني يوم بخصم ثلاثة أيام من راتبي، الأفاك الأفاك، طالما حلمتُ بأنني أغرز سكينًا في قلبه وأدور بالسكين داخل أنسجته لأرى نظرات العذاب في عينيه الكاذبتيْن وها قد جاءتني الفرصة، أن أقتله وأتخلص منه ومن كل الإهانات والظلم الذي تعرضت له في حياتي بسببه دون أن أدخل جهنم فهو لا يستحق أن أغمس غمسة في النار بسببه هذا القذر.

– ألم تنهك صلاتك من قبل عن الفحشاء والمنكر لترتكب تلك الكبيرة؟

– طوال عمري أعبد ربي خوفًا من ناره وعذابه لا حبًّا في الطاعة والصلاة؛ كانت الطاعاتُ ثقيلةً على قلبي ولكن عندما أسمع آيات العذاب في الآخرة تنتابني القشعريرة والرهبة والخوف فأقوم لأصلي لو لم يكن هناك عذابٌ في الآخرة لفعلت كل ما نُهيت عن فعله في الحال، وها قد حدث ما كنتُ أتمناه فليذهب إلى الجحيم بأهواله ويتركني في جنات الله الجبار المنتقم.

يمشي نورٌ في الطرقات وهو يضرب كفًّا على كفٍّ من حال ذلك

العجوز الأخرق؛ دخل أحد المحلات الكبرى لبيع البضائع ليجد صديقًا له من أثرياء المنطقة فيمشان معًا لشراء ما يحتاجانه، فجأة يجد صديقه يختار كل ما خفَّ وزنه وغلا ثمنه ويضعه في جيب معطفه.

– ما هذا، ماذا تفعل؟ أتسرق المحل؟ أنت لديك أموالٌ تكفي لشراء عشر محلات مثل هذا فلِمَ تفعل هذا؟

– هدئ من روعك؛ كانت تُسمى سرقةً قبل أن تخرج الشمس من مغربها، الآن لن يُحاسبني عليها الله ولن يكتبها ملك الشمال فلم لا أفعلها؟ لِمَ أنفق نقودًا إذا كنت أستطيع أن آخذ كل ما أريده بلا ظابط ولا رابط؟

– ولكن أخلاقنا وما تربينا عليه يمنعنا من تلك الأفاعيل الضالة.

– لا تكن ساذجًا، أي أخلاق وتربية، أقول لك رُفع القلم ولا توبة لتائب وتقول لي أخلاق وتربية. ما كُتب في صحيفتك قد كُتب فعشْ واستمتعْ بآخر أيامك.

– نور، كيف حالك؟

– لست بخير أبدًا بعد ما رأيته اليوم.

– أتأتي معي لنقابل باقي أصدقائنا؟

– أتمنى ذلك فلقد أصابتني أحداث اليوم باكتئابٍ شديدٍ.. أين سنذهب؟

– إلى الملهى الليلي الشهير.

– ملهى ليلي؟ أتمزح معي؟ منذ متى وأنتم تذهبون إلى تلك الأماكن؟

- منذ أن خرجت الشمس من مغربها.
- لا، لن أذهب معكم.. ابتعد عني.
- أمتأكد أنت؟ فأميرة حبيبة القلب هناك.
- أميرة؟ مستحيل.
- تعالَ معي وسترى بنفسك.

لم يُصدق نور عينيْه؛ أميرة حبيبته، جوهرته المكنونة، ملاكه البريء النقي هي من تتراقص وتتلوى كالأفعى أمامه في تلك الثياب الفاضحة؟ أهي مَن تُمسك بكأس الخمر هذه وتتجرعها في جرأةٍ ولا مبالاةٍ؟ أين حياؤها الذي كان؟ أين ملائكيتها المفقودة؟ أين حشمتها ووقارها؟

تتلاقى أعينهما فتتوقف أميرة عن الرقص وتنكسر عيناها في أسفٍ وتنظر إلى الأرض ولا تتركها حتى خرج نور مُسرعًا والصدمة والدهشة لم تزل لم تفارقه.

عاد نور إلى منزله منكسًا رأسه حزينًا، يقف في نافذته سارحًا فيما يحدث لمن حوله، يجد بعض البلطجية المعروفين في منطقته يحطمون المحال المُحيطة ويستولون على ما فيها ويضربون أصحابها ويسحلونهم على الأرض ويتحرشون بكل من تسير ويخطفون من تتمنع ويضعونهن في سياراتهم وينطلقون بهن بعيدًا ليغتصبونهن بلا رحمةٍ؛ لم يكونوا بتلك البجاحة والجبروت من قبل، كانوا يفعلون ما يفعلون على استحياء، ينظرون حولهم قبل أفعالهم القبيحة ويضربون ضربتهم ويفرون، أما الآن فكأن الشارع أصبح ملكًا لهم مسيطرين على مصائر الناس.

- ألو؟ نور؟ كيف حالك؟ لم نرك منذ زمنٍ.

- لم أستطع تحمل ما يحدث فاعتزلت الدنيا والناس؛ الجميع إلا من رحم ربي تحول من النقيض إلى النقيض، الآن فهمت معنى الآية الكريمة التي تقول: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ».

تخلوا عن مبادئهم، فعلوا الفواحش فقط لأنهم لن يُحاسبوا عليها؛ من كان صالحًا أصبح فاسقًا فاجرًا والمجرم الآثم ازداد في إجرامه وجبروته بعد أن فقد أي أملٍ في التوبة؛ هل كان للمجرمين بعضٌ من ضميرٍ كان ما زال حيًّا يفتح لهم بابًا ضيقًا من الأمل للتوبة فلما انغلق الباب أغلق وراءه أيَّ وازعٍ يمنعهم من التجبر بلا رحمةٍ؟ هل لم يفهم الصالحون لُبَّ العبادة المبني على الحب والخشية والطمع في رحمة الله سبحانه لا الخوف من عقابه؟

- تفاءل يا نور، هناك بعض الصامدين الذين ينعقد عليهم الأمل في العودة إلى الفطرة التي فطرنا الله عليها؛ يجب أن نبحث عنهم في كل مكان، يجب أن نصنع حائط صد ضد الفساد والخراب الذي يحدث من حولنا لعل وعسى ننجح في العودة مرةً أخرى.

- نعم عندك حق، سنتصدى لهم مهما كلفنا الأمر.

يجوبُ نور وأصدقاؤه الشوارع والطرقات يُقاومون الشر القاتم الذي ينتشر في كل البلدان بعد أن انتشرت الجرائم والسرقات وحوادث الاغتصاب والقتل في كل مكان والفقر أصبح سمة أساسية

بعد أن امتنع الأغنياء من دفع الصدقات والزكاة فهجم الفقراء على المتاجر والقصور ليحصلوا على قوتٍ يُسمنهم من جوع؛ لم يعد أحدٌ آمنًا في بيته ولا على سربه، انتشر الخوف والإرهاب بين الجميع وأصبحت الجثث مسجاةً في كل مكانٍ لا تجد مَن يُكرمها بالدفن؛ فقد الجميع الأمل في أي شيء وكل شيء.

يُحاولون إنقاذ الأبرياء من براثن المجرمين ويُطعمون الفقراء ويسدوا حاجات أطفالهم، ازداد عددهم يومًا بعد يوم من الذين لا يزالون يحتفظون بفطرتهم ونقاء قلبهم وعدم تأثرهم بما يحدث حولهم ليُشكلوا فِرقًا متنقلةً في محاولاتٍ لنشر الخير والعدل والسلام مرةً أخرى، كملائكة غلاظ شداد وسط نيران الشر والفساد والأحقاد، ينجحون مرةً ويفشلون مراتٍ ولكنهم أبدًا لا يفقدون الأمل.

خرج نور من خيمته وسط أتباعه في البقعة الخضراء الوحيدة المتبقية ينظرون بأسى مُفعم بالألم والأمل إلى الدخان المُتصاعد من الأطلال في كل مكانٍ حولهم ينتظرون يومًا تعود الأحوال إلى ما كانت من قبل، ولكن هل ستعود أم أن كل شيء قد انتهى إلى الأبد؟!

- كانت فكرةً رائعةً يا حاييم رغم معارضة الكثيرين لها في البداية.

- لم يقتنع الكثيرون بنجاحها يا شيمون لولا مساندتك لي.

- أنت تعلم أن الأمر كان يستلزم موافقة الكنيست خاصة أن الأمر كان يحتاج إلى سنواتٍ عديدةٍ وميزانيةٍ خرافيةٍ لتطوير تكنولوجيا الهولوجرام لتطمس سماءهم بأجهزتنا الحديثة ونظهر لهم سماء زائفة تُشرق فيها الشمس من مغربها كما هو مذكورٌ في كتبهم.

– كانت أكثر الاعتراضات على الخمسين مليون دولار التي طلبها هذا الداعية الشهير مسموع الكلمة عندهم ليجتزئ من أحاديث رسولهم ما يُعضد ما نريده منهم ويُقنعهم بما يُحقق لنا النصر في النهاية.

– نعم، فقد انتصرنا عليهم بدون أن نُطلق طلقةً واحدةً رغم مقاومة البعض.

– مبروك نجاحنا الباهر يا حاييم.

– مبروك يا شيمون.

***

تَاجِرُ الذِّكْرَيَاتِ

ذكرياتٌ قديمةٌ للبيع.

سمعتُ هذا النداء العجيب وأنا جالسٌ أحتسي كوب الشاي الساخن في غرفتي المتواضعة وقت العصاري، قمتُ لأرى مَن هذا المخبول الذي يُنادي وجَدته رجلًا في الخمسينيات من عمره يرتدي جلبابًا نظيفًا وعِمَّة على رأسه؛ كيف يتركون مثل هؤلاء المجانين يمشون في الشوارع بلا ضابطٍ ولا رابطٍ، قد يكونون خطرًا على المواطنين.

أصبحتُ أسمعُ هذا النداء في كل يوم في نفس الوقت؛ يمر يوميًّا بلا تأخيرٍ ولو دقيقةً واحدةً، تعوَّدت على سماع صوته حتى إنه عندما غاب يومين أحسستُ أن هناك ما ينقصني، عندما سمعتُ صوته بعد غيابه قررتُ أن أنزل لأتحدث معه للمرة الأولى.

- ماذا تبيع؟

- أبيع ذكريات.

- كيف هذا؟ كلنا لدينا ذكريات، كيف تبيعها لنا؟

– هناك كثيرون لا تُعجبهم ذكرياتُهم فيريدون غيرها؛ كثيرون هم مَن يعيشون على أطلال الماضي فيريدون ماضيًا سعيدًا حتى يستطيعوا أن يُكملوا حياتهم البائسة؛ وهناك آخرون حاضرهم غير سعيدٍ، حاضرهم حزينٌ ومليءٌ بالهموم فعندما يتذكرون ماضيهم السعيد يزداد همهم وتتكاثر عليهم أحزانهم، فيريدون التخلص من سعادتهم الفائتة حتى لا يُقارنوا بين ماضيهم السعيد وحاضرهم الأليم، فتقوى هممهم على تحمُّل حاضرهم. الناس أنواعٌ، هناك مَن يُريد ذكرياتٍ سعيدةً وهناك مَن يُريد ذكرياتٍ حزينةً، لو توحدت الأذواق لبارت الذكريات.

– وأين اختفيت لمدة يومين؟

– نفدت مني الذكريات فذهبتُ لآتي بغيرها.

– إذن دعني أجرب! أعطني بعضًا من الذكريات السعيدة، فأنا ذو ماضٍ أليمٍ؛ أم ماتت أثناء ولادتي، أب قاسٍ كنتُ حملًا عليه ويُحملني ذنب وفاة أمي، زوجة أب أقسى من أبي لا همَّ لها سوى التخلص مني؛ أعيشُ عند عمي إلى أن امتنع أبي عن إرسال نقودٍ له فأرسلني إلى أحد الملاجئ و... لن أشغل بالك بقصتي؛ المهم أن تُعطيني ذكرياتٍ سعيدةً تُعوضني عما رأيته في حياتي.

– حسنًا، لك ما تُريد ولكن على شرطيْن: أولًا أن تبيعني ذكرياتك وألا تبحث وراء ذكرياتك الجديدة.

– خُذها، لا أريد تذكر أي يومٍ بها.

– ألا يوجد بها يوم جيد؟

– لا، لا يوجد وحتى لو وُجد، لا أريد تذكر أي شيء عن الماضي، خلصني منه في أسرع وقتٍ.

– حسنًا من الآن لن تتذكر ماضيك الأليم سيُمحي من ذهنك تمامًا وسيُصبح ماضيك وذكرياتك كلها سعادة.

فلأجرب وأرى هل كلام هذا البائع المجنون صحيحٌ أم ماذا؛ أحاول تذكر أي شيء فلا أستطيع، كأن ذكرياتي مكتوبةٌ على ورقةٍ بيضاء فارغة، ماذا فعل بي هذا الرجل المريب، كأن حياتي السابقة اختفت فجأةً، أشعر كأن أحدهم يكتبُ في تلك الورقة بسرعةٍ فائقةٍ حتى تمتلئ عن آخرها؛ أجدني طفلًا وسيمًا يحملني أبي في رقة ويلعب ويمزح معي، أمي تبدو كالبدر في تمامه تضحك ملء فِيهَا علينا، نلقي بالكرة بعيدًا في حديقة منزلنا فيجري كلبي الضخم وينقض علينا ويعود بها لنا فأربت على ظهره في حنان؛ يا لها من ذكريات رائعة، تتوالى الذكريات في ذهني، أراني وسط أقراني في مدرستي الواسعة المليئة بالملاعب الخضراء، يتبعني الجميع كأني زعيمهم ويتهافتون ليشتركوا في فريقي في كرة القدم، ألعب كمهاجم وأحرز أهدافا كثيرة لنفوز بالبطولة وأبي وأمي يصفقان لي ويحضنان بعضهما في حب كلما أحرزت هدفا؛ أذاكر دروسي في غرفتي المليئة بالألعاب وتدخل عليَّ أمي بفنجان القهوة ليُساعدني على السهر وأنجح بتفوق في الامتحانات. تلك هي الذكريات وإلا فلا.

أخرج إلى عملي؛ أعملُ نجارًا باليومية؛ أنتظر الرزق يومًا بيوم؛ أعود بعد يومٍ شاق ألعن الفقر والحاجة؛ أجتر بعض ذكرياتي السعيدة فأشعر ببعض الرضا.. أم لا أشعر؟! أتناول طعامي البسيط

فأتذكر سُفرة غذائي السابقة العامرة بما لذَّ وطاب فلا أعلم أأصبر نفسي على حالي أم أشتاق لتلك الأيام؟ فليرحم الله أبي وأمي اللذين أراهما في كل شيء سعيد أتذكره، ولكني لا أتذكر وفاتهما، لا أتذكر موتًا ولا أحزانًا ولا عزاء، أين هما إذن؟ لماذا تركاني أجاهد وحدي لكي أعيش؟

أرى الطريق إلى منزلي القديم في ذهني بكل وضوح؛ أصل إليه فأجده خاليًا مهجورًا وحديقته التي كانت مليئة بالزهور والأشجار الباسقة أصبحت صفراء قاحلة.

لا أجد أحدًا لأسأله عنهما سوى بواب الفيلا المُلاصقة.

- السلام عليكم، ألا تعرف أين ذهب ساكنو تلك الفيلا؟

- ياااااه، تركوها منذ سنواتٍ منذ أن مات ابنهما الوحيد في حادث.

- ماذا تعني أن ابنهما مات؟ أنا ابنهم.

ينظر إلى البواب في دهشةٍ ثم تنقلب إلى نظرة شفقة تتهمني بالجنون.

- أنا أعمل هنا منذ ثلاثين عامًا وأعرف أهل المنطقة فردًا فردًا وهذه هي المرة الأولى التي أراك فيها؛ ابحث عن أهلك في مكان آخر يا مسكين.

- ألا تعرف أحدًا يعرف أين ذهبوا؟

- لا يوجد سوى تلك الفتاة التي تأتي كل يوم في موعد محدد تُلقي

نظرة على المنزل وتذهب.

- متي تأتي؟

- موعدها اليومي بعد حوالي نصف ساعة.

- سأنتظرها معك.

- تفضل يا ابني!

يمر الوقت بطيئًا كسلحفاة رائقة البال؛ فجأة تتوقف سيارة حديثة وتفتح زجاجها حورية من حوريات الجنة، تمسك بمنديل لتمسح دموعها، تنهال على الذكريات كشلالاتٍ عنيفةٍ، أراها تلبس فستانًا ورديًّا وشَعرها مُتهدل على كتفها كملاك بريء وأنا أقف بجانبها أرتدي حلة أنيقة ونجلس معًا على الكوشة في حديقة منزلنا؛ أرى نظرات الفرح في عينيْ أبي ودموعه في عينيْ أمي. إنها خطيبتي حبيبتي، لِمَ تركنا بعضًا رغم أنها ما زالت تُحبني وتأتي يوميا لتلقي نظرةً على منزلي.

- كيف حالك؟

- تنظر لي في رهبة. من أنت؟

- من أنا؟ أنا خطيبك الذي تأتين يوميا لتلقي نظرةً على مكان خطوبتنا، أنا حبيبك.

- خطيبي مات أيها المُختل، ابتعد عني!

تغلق نافذة السيارة وتنطلق في سرعة.

- ما معنى هذا؟ مَن أنا إذن؟ كل مَن يقتحمون ذكرياتي لا يعرفونني،

كيف أكون بلا ماضٍ؟ مَن لا يملك ماضيه لا يملك مستقبله، أشعر أن حياتي تنسابُ من بين يدي كحبات رمالٍ ناعمةٍ، مَن أنا؟ كيف سأعيشُ إنسانًا بلا هويةٍ؛ ماضٍ مُزيفٌ ومستقبلٌ مجهولٌ.

أعود إلى منزلي منكسرًا فأقابلها، فتاة متوسطة الجمال ترتدي جلبابًا ملونًا ذات ابتسامةٍ تُشعرك بالألفة كأنك تعرفها منذ زمن.

- اشتقت لك كثيرًا.

- من أنت؟

- كفي مزاحًا، لن تهرب من اللوم، أسبوع كامل لم تسأل عليَّ.

- أنا لا أمزح، أنا لا أعرفك.

- ماذا تعني؟ أتريد أن تنهي علاقتنا؟ فلتقل ذلك، قل لي لا أريدك، قل لي نسيت كل الحب الذي كان، نسيت كل وعودك لي وكل أحلامنا معًا، ولكن لا تدَّعي الجنون، اترك لي ذكرياتٍ جميلةً سعيدةً أتذكرها لاحقًا، لا تجعلني أتذكرك بالسوء دائمًا.

- اتركيني الآن أنا لستُ في حالٍ يسمح لي بالحديث مع مجانين.

تنظر إليه مندهشةً وهو يتركها ويمشي بعيدًا غير مصدقةٍ والدموع تنهال من عينيها.

أظل في غرفتي منتظرًا التاجر اللعين الذي أحدث هذا الزلزال وتلك البلبلة في حياتي، من أنا؟ هل أنا ساكن الفيلا الكبيرة أم ساكن السطح؛ هل حبيبتي هي تلك الفاتنة راكبة السيارة الفارهة أم صاحبة الجلباب التي رأيتها في الحارة.

أشعر بأني بلا ماضٍ ولا مستقبل؛ تلك الذكريات والماضي الذي

لا يشتري بالمال مهما كان صادمًا حزينًا، الماضي هو ما يصنع الحاضر، الماضي هو ما صنع الشخص الذي أنا عليه الآن، لا أستطيع سرقة ماضي شخص آخر مهما كان سعيدا، فأنا أنا وهو هو. أين أنت أيها التاجر اللعين.

أسمع صوته قادمًا من بعيدٍ، أهرع إليه مهرولًا.

– انتظر انتظر، ماذا فعلت بي؟ ما تلك الذكريات التي بعتها لي؟ إنها أوهام كلها.

– إنها ذكريات والديْ الفتى الذي كنت تراه في ذكرياتك، عندما تُوفي في الحادث جاءوا إليَّ ليبيعوا ذكرياتهم حتى يتخلصوا من الذكرى الأليمة لوفاة ابنهم فبعتها لك، وقد حذرتك من البحث وراء ذكرياتك ولم تسمع كلامي.

– ماذا أفعل الآن إذن؟ لا أريد الذكريات التي بعتها لي، أريد ذكرياتي.

– لا يمكن فات الميعاد، فقد بعتها منذ يومين.

– والحل؟

– لا يوجد سوى حلٍّ واحدٍ.

أمشي في الشارع هائمًا على وجهي أنادي بأعلى صوتي في كل مكان:

ذكريات قديمة للبيع....

المَتَاهَة

ما هذا؟ أين أنا؟ ما هذا الظلام الدامس؟ أنا حتى لا أرى كف يدي إذا مددتها؟ أيكون هذا قبري؟ أأصابتني إغماءة أو ما شابه وظنوا أنني مت ودفنوني حيًّا؟ ولكنني لستُ مكفنًا وأستطيع القيام والمشي.

أجري في الظلام فأصطدم بحائط صُلب وأقع على ظهري؛ أنظر أمامي على ضوء تلك الومضات الخاطفة التي تظهر كل حين ولا أعرف مصدرها فأجد دهاليز لا حصر لها متفرعةً في كل اتجاهٍ؛ متاهة كمتاهة مينوتور ذلك الكائن الخرافي في الأساطير الإغريقية المُكون من نصف إنسان ونصف ثور والذي تم وضعه في تلك المتاهة ليظل تائهًا فيها سنواتٍ اتقاءً لشرِّه بعد أن نما وافترس وأصبح شرهًا للحوم البشر.

أنظر فوقي إلى السماء، سماء؟ أي سماء؟ لا شمس فيها ولا سحب ولا قمر كأنها العدم.

أين أنا؟ هل مت فعلا أم ماذا؟ يُكبلني الخوف وأقاومه وأنطلق في تلك الممرات الغامضة لعلي أجد أحدًا أسأله عما يحدث لي.

ممرات ودهاليز بعضها مفتوح والآخر مسدودٌ؛ فجأة أجده يجري نحوي، ضخم الجثة أشعث الشَّعر يلبس ملابس كئيبة قاتمة ويُمسك سلاحًا ناريًّا في يده ويطلق الرصاص هنا وهناك، ليتساقط البعض أرضًا أما الآخرون فيركضون مثلي هاربين من هذا المجنون في سرعةٍ لعلهم يخرجون مما هم فيه؛ أتعثر وأسقط على الأرض فيقترب مني وأشعر أن نهايتي قد اقتربت، ولكنه ينظر إليَّ في غضبٍ ويتركني ليُطارد آخرين.

أركض وأركض وأركض بحثًا عن النجاة حتى أشعرَ أن قلبي سيتوقف من التعب ومن الخوف من هذا المكان البشع الكئيب؛ أحاول الصراخ ولكن الصرخة تقف على أبواب فمي ولا تخرج.

أقابل بعضهم كل حين وأنفاسنا منقطعةٌ من الركض الدائم وننظر لبعضٍ في ذهولٍ مما يحدث لنا ولا نعرف سببًا له. أحاول سؤالهم إذا كان أحد يعرف ماهية ما نحن فيه ولكن لا حياة لمن تنادي، الكل يقول نفسي نفسي.

هل هي هي فعلا؟صديقة حبيبتي السابقة؟ إنها الأولى التي أعرفها هنا، أجري تجاهها فتنظر إليَّ في احتقارٍ وتتركني وتذهب بعيدًا في سهولةٍ ويُسر كأننا لسنا في متاهةٍ يتوه فيها الجميع، تسير الهوينى مطمئنة لا تلقي بالًا للقاتل الأشعث.

فجأةً تظهر هالةٌ من الضوء أمامي أدخل بسرعة فيها، ما أن تطأ قدمي داخلها حتى أسمع صراخًا مكتومًا مشوشًا يقول بألمٍ شديدٍ:

- لا لا ابتعد، اذهب بعيدًا.

تتساقط الهالة كبلور مكسور مع صرختها، كأن رصاصة أصابتها لتكسرها إلى آلاف القطع، أخرج بسرعة من الهالة ليحيطني الظلام مرة أخرى؛ إنها رصاصة فعلا، أجده أمامه وسط ومضات الضوء المتقطعة مصوبًا سلاحه نحوي ويتصاعد من فوهته دخان رصاصته التي أطلقها نحو الهالة، يظل مصوبًا سلاحه نحوي وأكاد أرى اهتزاز إصبعه على الزناد كأنه يتردد في الضغط عليه، كأن هناك من يُجبره على أن يُطلق الرصاص نحوي ولكنه في النهاية يخفض سلاحه ويبتسم ابتسامة المنتصر ويذهب بعيدًا.

إذن فتلك الهالات هي مصدر تلك الأضواء المتقطعة التي ترشدني في الظلام.

أشعر بأمانٍ وحنانٍ شديديْن يُحيطان بي وأنا في داخل تلك الهالة عكس الرعب والخوف الذي يُصيبني وأنا في تلك المتاهة اللعينة، حميمية ودفء عكس البرودة الشديدة في الخارج.

ماذا يحدث لي؟ أين أنا؟ إنه ليس حلمًا بالتأكيد فأنا أشعر بكل ما حولي واقعًا ملموسًا رغم غرابته.

هالة أخرى تظهر أمامي، أسمع الصراخ وأنا ما زلت بالخارج ولكنها نقطة الضوء الوحيدة التي أراها لعلها تكون طوق النجاة، أنطلق داخل الهالة وأصم أذنيَّ عن الصرخات المتألمة.

أجد نفسي فجأةً في الجامعة، أول مرة ألتقي بحبيبتي التي لم أرها منذ شهور، أتذكر ذلك اليوم جيدًا، ما أن رأيتها حتى شعرتُ أنني أرى البدر في تمامه يغطي على ضوء النجوم من حوله، كملكة أسطورية متوجةٍ والباقون خدم ورعايا، كزهرة نيسان يملأ عبيرها

الدنيا بما فيها، كفارسةٍ على حصانها تُطلق سهامها القاتلة لتخترق قلبي العاشق..

يختفي الكون كله من أمامي ولا أرى سواها، أشعر أنني أريد أن أموت وأحيا بين يدي مولاتي.

تلتقي عينانا فلا أنزلها من عليها، يصيبها خجلٌ شديدٌ ويحمر خداها الرائعان وتسرع في الخطى بعيدًا عني آخذة قلبي معها العاشق منذ النظرة الأولى.

آخذ قرارًا في قرارة نفسي أنه لن يهدأ لي بالٌ إلا بعد أن أتعرف على تلك الفتاة وأوقعها في شباك حبي.

أشعر كأن أحدًا ركلني فجأةً خارج الهالة لأعود إلى التيه المظلم مرة أخرى؛ التيه المرعب، أحاول اختيار أي طريق يظهر أمامي فأشعر أن كل الممرات مُتشابهة، أشعر أنني أدور في حلقاتٍ مفرغةٍ عائدًا دائمًا إلى حيث أتيت.

أصبحت أشتاق إلى تلك الهالات التي تبعدني عن الظلام العدمي الكئيب الذي أشعر أن روحي تتآكل أثناء وجودي فيه.

هالة أخرى سيبدأ ضوؤها في الاضمحلال، أسرع ناحيتها لأجد صديقة حبيبتي تجري نحوها تلك المرة فنقفز داخلها معًا.

أجد نفسي مع حبيبتي على مائدة في أحد المطاعم ننتظر أقرب صديقة لتعرفني عليها لأول مرة؛ أقابلها بترحابٍ شديدٍ ونجلس معا لتناول الغداء وتخبرني أنهما أصدقاء منذ سنوات وأنها للمرة الأولى تراها بكل تلك السعادة منذ أن قابلتني.

تنظر إليها حبيبتي في عتابٍ مشوبٍ بالدلال فنضحك جميعًا من قلوبنا.

وأدخل إلى هالةٍ أخرى ولكن وحدي تلك المرة، معها مرة أخرى عندما أخبرتها أن أهلي لا يُوافقون على زواجنا بسبب التباين في المستوى الاجتماعي بيننا، أحاول فهم ما تقوله وسط نهنهاتها، أخبرها أنني حاولت التفاهم معهم وإقناعهم ولكن بلا جدوى.

- والحل؟

- يجب أن نفترق فقد أخبروني أنني لن أحصلَ منهم على مليم واحد إذا تم الزواج وسيمنعوا عني أموالهم وميراثهم.

- إذن فهي النهاية؟

- نعم للأسف، ولكنني أريدك أن تعلمي أنني قضيتُ معك أجمل أيام حيا.....

- شششش..لا أريد أن أسمع صوتك مرة أخرى.

ثم تصرخ فيَّ قائلةً:

لا لا ابتعد اذهب بعيدًا.

إنه نفسُ الصراخ ونفس النبرة التي أسمعها كلما دخلت الهالة؛ الصوت مختلفٌ كأنه يخرج من بئرٍ عميقةٍ ولكنه صوتها، نعم صوت من كسرت قلبها بعد أن ملكت قلبي.

أجد صديقتها أمامي مرة أخرى تهم بالدخول في هالةٍ أخرى، أمسك بذراعها وأجذبها بعيدًا.

- انتظري أين أنت ذاهبة؟

– ذاهبة إليها.

– كيف ذلك؟ أين نحن؟ فأنا أراكِ تتحركين في تلك المتاهة بلا أي صعوبةٍ كأنك تحفظينها عن ظهر قلب ولا تخشين تلك الرصاصات الطائشة.

– نحن في متاهات ذاكرتها.

– ماذا تعنين؟

– أعني كما قلت، نحن في ذاكرة من كانت يومًا حبيبتك، لكل منا ذاكرة يتجول فيها كل من قابلناه في حياتنا، أحيانًا يقبعون في متاهات النسيان وأحيانا تحيطهم هالات التذكر؛ أنا أحفظها لأنني آتي هنا كثيرًا، فهي صديقتي منذ صغرنا وهي تحب ذكرياتنا معًا وتعطيها بهجةً وسعادةً عكس ذكرياتها معك التي لا تريد أن تتذكرها أبدًا للألم الذي تسببه لها تلك الذكريات، ولكن حبها الشديد لك يُجبر بعض ذكرياتكم معًا على الطفو على السطح كل فترةٍ حين تُحيط بك هالة التذكر ولكنها تُحاول المقاومة دائمًا لتطردها بعيدًا.

– ومَن هذا الأشعث الذي يُطاردنا؟

– إنه النسيان، أنت تعلم أن النسيان أناني جدًّا، لا يختار سوى الأشياء التي يريدها، يتلاعب بذاكرتنا كما يريد، قد يمحو ذكرياتٍ بطلقاته الطائشة ويترك لنا تلك الذكريات المؤلمة لتؤرقنا ليلا ونهارًا؛ مقاومته تحتاج إلى مجهودٍ خارقٍ منا، لذا لا أخاف منه فأنا أعلم أن ذكرياتي معها لا ولن تنتهي ولن تذهب في طي النسيان وهو يكرهني بشدةٍ لأنه يعلم أنه لن يقدر على محوي من ذاكرتها، ولكنني تحدثت

معها منذ قليلٍ ووعدتني أنها ستنساك ولن تفكر بك أبدًا لأنك لا تستحق أن تمر على بالها مرة أخرى؛ هذا نتاج مجهودٍ كبيرٍ ومحاولاتٍ عديدةٍ فاشلةٍ وصراعٍ شديدٍ لا تتخيل مداه بينها وبين النسيان الأشعث منذ أن تركتها أعتقد أنك لمسته أثناء مطارداته لك ولكنني أثق أنها ستنجح تلك المرة.

– ما معنى هذا؟

– معناه أنك ستظل وحيدًا في ظلام التيه إلى الأبد، سأذهب إليها الآن، إلى اللقـ... لا أعتقد أنني سأراك مرة أخرى.

هالة جديدة وبالطبع أجده أمامي ينظر إليَّ نظرات الاستسلام والانكسار ويجر أذيال الخيبة من هزيمته في معركته معها، يشهر سلاحه في وجهي مجبرًا وأرى الرصاصة وهي تنطلق وتقترب مني في سرعةٍ.

❋❋❋

مِنْ حَقِّنَا نَحْلُم ٢

أمسك بيديْها وجذبها نحوه في شدةٍ مشوبةٍ بالحنان ونظر إلى عينيها ثم هبط بنظراته إلى شفتيها الورديتين المكتنزتين اللتيْن تصرخان فيه بصمتٍ أن يلقمها وهو غير مصدقٍ أن حبيبة عمره التي لم يتمن سوى نظرةٍ منها من قبل الآن في أحضانه، يُقرب شفاهه منها ليستعد لتقبيلها قُبلة يمتص بها رحيق شوق السنوات، يُعيد لحياته حياتها ويزرع بها صحراءه الجرداء، ها هي ذي المسافة بين شفاههم تقترب وفجأة....

يفتح عينيْه وينظر حوله، إنه في سريره، تبًّا، ليس مرة أخرى، لحظات وكان سيُقبلها ويُحقق حلمه المهجور، أكان يجب أن يستيقظ الآن، ألم يكن من الممكن لحلمه أن يمتد لحظاتٍ أخرى.

تلك التي ملكت قلبه منذ الصغر ولم تنبض دقاته سوى باسمها ولم يستطع نيل القرب منها بسبب ظروفه المادية لتنتظر هي الفارس بسيارته البيضاء الفارهة ودفتر شيكاته ليخطفها من أمامه ويدخلها قصره الأسطوري ولا يترك له سوى الأحلام، حتى أحلامه التي كان يقتات عليها أصبحت لا تكتمل منذ فترةٍ، حتى الحلم أصبح بعيد المنال.

والآن ميعاد السحب السنوي على جائزة المليون جنيه، فلننتظر ونرى من سعيد الحظ الذي سيُصبح مليونيرًا بعد لحظات.

ينتظر وقلبه يدق بقوةٍ من الخوف والترقب حتى يكاد يهدم المسرح على من فيه، أرسل عدة رسائل قصيرة على هاتف البرنامج لعله يفوز ويودع فقره المزمن الذي أصبح كتوءم ملتصق به لا يُبارحه أبدًا، كان الحظ هو وسيلته الوحيدة لإزالة ورم فقره الخبيث الذي يُحيط به من كل جانب.

يسحبون ورقةً بها أسماء المشتركين وما أن تنطق المذيعة باسم الفائز حتى يتسمَّر في مكانه بعد أن سمع اسمه ولم يُخرجه من دهشته وذهوله سوى التصفيق الحاد من كل الموجودين ليجر قدميْه جرًّا نحو المسرح ويمد يده ليستلم الشيك، ها هي ذي يده والثروة تكادان تتلامسان وفجأة....

يستيقظ ليجد نفسه راقدًا على الأرض في عشته المتواضعة الخالية من أي أثاثٍ يُذكر؛ عاد مجددا لحياته القديمة قبل أن يُكمل حلمه المنشود ليقوم غاضبًا ويكسر كل شيء أمامه كبركانٍ ثائرٍ لا حدود لقوته.

بعد قليلٍ سيُرفع الستار عنها، سترونها مختلفةً تمامًا بعد الـ makeover الذي تم لها في أرقى عيادات التجميل وبيوت الأزياء في بيروت والذي تطلب مجهود شهور منا ومنها ولكن ستدركون بعد قليلٍ أن النتيجة تستحق.

تنتظر في ترقب خلف الستار، سترى نفسها للمرة الأولى على الشاشات العملاقة الموجودة في كل مكانٍ بعد فك الضمادات عن وجهها تنفيذًا لشرط الشركة المنتجة، أخيرًا ستتمتع بالجمال الذي

حُرمت منه طوال سنوات، كان كونها جميلة هو أمنية طالما انتظرت أن تتحقق وها هو ذا الستار يُفتح ولحظات وسترى نفسها في أبهى صورها، الآن أخيرًا ستُصبح جميلةً وفجأةً....

تفتح عينيها ببطء وتقوم بصعوبةٍ من على فراشها بسبب أرطال اللحم المُتكدس على جسدها وتنظر إلى نفسها في المرآة لتجدها لا تزال هناك، ندبة كبيرة في جانب وجهها من حادثٍ قديم، تتأكد مرة أخرى أنها لا تزال كما كانت وتنظر جيدًا ثم تتنهد بحزنٍ وتعود إلى فراشها لتكمل نومها لعل حلمها يكتمل تلك المرة.

ينزل حليم من منزله يصفر أحد الألحان المبهجة المفضلة له ذاهبًا إلى الأستوديو لتسجيل حلقة جديدة من برنامجه الفكاهي الناجح الذي ينتظره الملايين أسبوعيًّا لرسم البسمة على وجوههم بعد هموم أسبوعهم، ينظر حوله في وجوه الناس لا يجد سوى التجهم والبؤس، أين اختفت ضحكاتهم؟ أين مزاحهم وبساتهم؟ أينما ذهب وجد شجارًا وصياحًا، لم يعد أحدٌ يُطيق ويتحمل الآخر.

يدخل الأستوديو فيجلس مع معدِّ البرنامج قبل التصوير.

- علام تلك البهجة يا حليم؟ من أين تأتي بها؟

- ولمَ لا أبتهج يا كئيب؟

- كئيب؟ كنت على وشك أن تضحكني، ألا ترى أحوال الناس؟

- نعم، ومندهشٌ من رد فعلهم.

- مندهش؟ أنت تعيشُ في كوكبٍ آخر؛ كل منا له أحلامه التي يهرب بها من واقعه المؤلم غنيًّا أو فقيرًا، أحلامه التي تهوِّن عليه

حياته، التي تجعل أيامه تمر بعيدًا عن أحزانه وآلامه، حتى تلك الأحلام أصبحت لا تكتمل، من الناس من يحيا فقط لمطاردة أحلامه وإذا أوشك على تحقيقها تركها وبحث عن غيرها ليجد هدفًا لحياته المقبلة؛ هناك من يسرق أحلام الناس ولا يترك لهم منفذًا لمواجهة أحزانهم، الجميع تأثر بهذا الأمر، من يملك رفاهية الذهاب لطبيب نفسي ذهب ومن لا يملك أخرج همه في ممارسة الجنس وتناول الطعام بشراهةٍ ولما وجدوا أن لا شيء يُجدي أخرجوا همومهم عن طريق الغضب فانتشر العنف في كل مكان، العنف مع الأب، مع الأم، مع الأبناء، مع الجيران، حتى بين المارة في الطرقات؛ أصبح التسامح عُملة نادرة الوجود اندثرت مع الأيام.

- أي أحلام تلك التي تتحدث عنها، أحلام وهمية تثبطهم عن تحقيق أحلامهم وطموحاتهم الحقيقية وتغييرهم لواقعهم؛ الحلم بالنسبة لى هو طموح يتحقق بالجد والعَرق والتغيير للأفضل لا بعض أوهام لا تُسمن ولا تُغنى من جوع.

- وما حُلمك إذن؟

- حُلمي الآن أن أعيد نشر البهجة بين الناس وأجعلهم يعودون لتحقيق أحلامهم ونسيان تلك الأوهام التي أصبحوا أسرى لها، وسترى!

يدخل حليم المسرح وينظر إلى جمهوره المُتجهم ويبدأ في برنامجه المُعتاد؛ يُلقي قفشاته ونكاته التي كانت من قبل تجعلهم يستلقون على ظهورهم من الضحك فلا يجد سوى الصمت، صمت بائس كئيب لم يستطع كسره، لم ييأس وضاعف من مجهوده ولكن لا حياة

لمن تُنادي؛ انتهى العرضُ ولم يتلق تصفيقًا من أحدٍ بعد أن كان المسرح يرتج من تصفيقهم في الماضي.

أسبوعٌ وراء أسبوع نقص عددُ الحضور حتى اضطر المسئولون عن البرنامج أن يجعلوه بلا جمهورٍ؛ قلَّت الإعلانات بعد أن توقف المعلنون عن عرض إعلاناتهم وبعد عدة أشهر تم إلغاء البرنامج الذي كان يرسم البسمة على الشفاه التي تحجرت.

خرج حليم من الأستوديو بعد أن علم بإلغاء برنامجه والأسى يملؤه، حتى حُلم حليم لم يكتمل، الجميع في الشوارع والطرقات عابسون لا يُعيرون له بالًا؛ اندهش بشدة أنه وجد الأطفال لا يزالون يبتسمون والتفوا حوله في بهجةٍ؛ حاول أن يُبادلهم ابتساماتهم ولكن شعر أن عضلات وجهه ترفض أن تنبسط، مدُّوا أيديهم البريئة النقية إليه فنظر إلى وجوههم الباسمة بشوق ومدَّ يده إليهم ومشى معهم وقد عادت إليه آماله وأحلامه مرة أخرى.

- ألم يجده أحدٌ بعد؟

- لا، منذ أن سرق هذا المجهول قوس الأحلام الذهبي وأطلق سهامه على فقاعات أحلام الناس قبل أن تكتمل والجميع يبحث عنه في كهوف وغابات وطرقات مملكة الأحلام ولم يوجد له أثر، ولكننا أخذنا عهدًا على أنفسنا أن نجده مهما كلفنا الأمر لنعيد إلى البشر أحلامهم المسروقة وآمالهم المفقودة ونعيد البسمة لوجوههم ولن نيأس أبدًا، نعم لن نيأس أبدًا.

***

كُلْثُومِيَّات

هسيبك للزمن

هسيبك للزمن لا عتاب ولا شجن
تقاسي من الندم وتعرف الألم
تشكي مش هاسأل عليك
تبكي مش هارحم عينيك
يا للي ما رحمتش عينه
لما كان قلبي في إيديك

نعم أنا ابنته، سارة ابنة الدكتور محمود الكيلاني المخترع العظيم صاحب أكبر الجوائز وأعلى الأوسمة خاصة تلك التي نالها على اختراعه الأخير الذي حاز على إعجاب جميع أكاديميات البحث العلمي في العالم.

تخرجت في كلية العلوم بتقدير عام امتياز مع مرتبة الشرف وأعمل الآن في المركز القومي للبحوث.

لي أخت واحدة، هبة الحبيبة، أختي وحبيبتي وكل حياتي، اللهم تمِّم حملها على خير، فهي متزوجةٌ منذ عشر سنوات وذهبت إلى أكبر الأطباء ولم تكلل أي محاولات بالنجاح حتى فقدت الأمل؛ وفجأة منذ عدة شهور رزقها الله بحمل كان مفاجأة وفرحة لنا جميعًا، كنا نريد أن تكون أمي رحمها الله معنا لترى أول أحفادها.

فرغت من عملي ذات يوم في المركز واستوقفني زميل لي كنت قد رأيته عدة مرات ولكن لم نتبادل أطراف الحديث من قبل.

- آنسة سارة ابنة المخترع العظيم محمود الكيلاني؟

- نعم أنا.

- أنا لا أصدق نفسي، أنا اسمي مصطفى، ومن أشد المعجبين بوالد حضرتك، متابع له منذ زمنٍ وقرأت جميع أبحاثه، إنه عبقري بحق، أتمنى مقابلته يومًا ما.

- أهلًا بك في أي وقت، سأبلغ والدي وأرد عليك.

شكرًا جدًّا، تشرفت بمعرفتك.

تكررت لقاءاتنا في المركز، وبدأنا التحدث في الهاتف لدقائق معدودة، مرة وراء مرة زادت مدة المكالمات إلى ساعات؛ أصبحت أشعر بالراحة الشديدة عندما أتحدث معه، بدأ قلبي ينبض بالحب تجاهه ولكنني احتفظت بمشاعري لنفسي حتى باح لي بحبه في إحدى المكالمات وصرح لي بأنه يريد أن يُقابل والدي ليتقدم لخطبتي.

كان يوم خطبتنا من أسعد أيام حياتي، كان الفرح والسرور يملأ المكان خاصة والدي وأختي اللذيْن لم أر فرحةً كتلك التي في عيونهم منذ وفاة أمي.

جلسنا بعد الخطبة نتسامر ونتذكر تفاصيل الخطبة حتى مطلع الفجر، فأختي تقيم معنا لسفر زوجها إلى الخارج ولترعى والدي المُسن المريض بالقلب وأنا في عملي.

مصطفى من هواة جمع العُملات القديمة، خاصة الجنيهات الورقية القديمة؛ كان يذهب إلى أي مكانٍ يسمع أن لديه جنيهات من فترة الأربعينيات؛ نصحته عدة مرات ألا يُضيع أمواله في تلك العملات التي لن تفيده في شيء، كان يقول لي إنه يعلم ما يفعل وأن تلك الجنيهات القديمة ستجر علينا ثروةً لا حصر لها؛ كنتُ أتعجب من كلامه وأصمت حتى قال لي في إحدى المرات إنه يريد استعارة اختراع والدي الأخير عدة أيام وسيُعيده لنا، فاجأني طلبه، أبلغته أن والدي لن يرضى أبدًا بهذا الأمر، فليس هناك سوى نسخةٍ واحدةٍ من هذا الاختراع الذي ظل عاكفًا عليه لسنواتٍ طوالٍ ولن يُفرط فيه مهما كان حتى ولو لعدة أيامٍ، فهذا الاختراع بالنسبة له هو عمره كله.

أصرَّ على أن أحاول مع أبي، فلن نخسر شيئًا.

في إحدى جلساتنا معًا أنا وأبي وأختي تجرأت وأبلغت أبي بطلب مصطفى، احمرَّ وجهه من الغضب ورفض رفضًا تامًّا، حتى هبة أختي رفضت هي الأخرى ولكن لسببٍ آخر، إن هذا الاختراع عند بيعه سيأتي لنا بالملايين، غضب أبي أكثر من كلام هبة وصرخ فينا نحن الاثنين:

مـن قـال لكـما إن اختراعـي هـذا للبيـع والاسـتعارة؛ هـذا الاخـتراع بعـد أن أكمـل أبحاثـي وتجـاربي عليـه سـأهديه للدولـة لنـرى كيـف نسـتطيع اسـتخدامه لخدمـة البشريـة، إنـه عمـري كلـه وسـنوات عمـري ليسـت للبيـع، لـن أبيعـه ولـو عـلى جثتي، حتـى لـو مـت لـن تسـتطيعوا بيعـه فحقـوق الملكيـة وبـراءة الاخـتراع مُسـجلة باسـمي وأنـا كتبـتُ في وصيتـي بـضرورة إهدائـه لـوزارة البحـث العلمـي حـال مـوتي؛ اتركـوني الآن واذهبـوا بعيـدًا.

تغـيَّر مصطفـى مـن ناحيتـي كثـيرًا بعـد أن أبلغتـه برفـض أبي، قلَّـت مكالماتنـا ولقاءاتنـا وحتـى حـين نلتقي يظـل شـاردًا ولا يتحـدث معـي، لم أتحمـل هـذا الوضـع كثـيرًا فقـررت التحـدث معـه.

قـال لي إن أبي قـضى عـلى حلمـه بالثـراء السريـع؛ كان يجمـع الجنيهـات القديمـة حتـى جمـع الآلاف منهـا حتـى يسـتخدم آلـة الزمـن التـي اخترعهـا أبي ليذهـب إلى الأربعينيـات ويشـترى الآلاف مـن السـبائك والجنيهـات الذهبيـة بسـعرٍ زهيـدٍ ويعـود ليبيعهـا بالملايـين ونصبـح مـن الأغنيـاء في غمضـة عـين.

فاجأتنـي خطتـه الذكيـة، ولِمَ لا يـا أبي، مـاذا لـو وافقـت عـلى اسـتعارة تلـك السلسـلة العجيبـة لتجعـل ابنتـك مـن الأثريـاء وتؤمـن مسـتقبلها.

شـعر مصطفـى بحـماسي وإعجـابي بفكـرتي فأمسـك بيـدي في حنـانٍ لم أره منـه منـذ رفـض أبي وقـال لي:

ألا تعرفين مكان السلسلة؟

- بالطبع أعرف مكانها فأنا كنتُ معه خطوةً بخطوةٍ في تنفيذ اختراعه.

- إذن فلتأتِ لي بها دون أن يشعر وعندما يعلم باختفائها سيغضب قليلًا ثم سيُسامحك بالطبع، نكون نحن قد أصبحنا أثرياء ونعيش حياتنا المقبلة في سعادةٍ وهناء مع أموالٍ طائلةٍ تكفينا نحن وأولاد أولادنا.

- أتطلب مني سرقة الاختراع؟

- ليست سرقة؛ قلت لك إنها استعارة ثم إنه أبوك هل يسرق أحدٌ أباه؟

جلستُ أفكر وأقلب الأمر في رأسي، هل سيبخل أبي عليَّ بملايين طائلة؟ إنه أبي الذي لم يجعلني أحتاج شيئًا منذ صغري، يُلبي لي كل طلباتي دائمًا فماذا في أن آخذ اختراعه الذي تعبت وسهرت الليالي معه في تنفيذه، أنا لي حق في تلك الآلة مثله، لولا مساعداتي لم يكن سيستطيع تنفيذه وحده، بضعة أيام لن تضره في شيء وستغير حياتي.

أتأكد من أن الجميع نائمون وأدخل معمله في صمتٍ على أطراف أصابعي، أستخدم ضوء الكشاف لأفتح الخزانة الموجودة بها السلسلة، فجأة يُضاء النور، أشعر بالفزع وأنظر خلفي لأجد هبة تقف على الباب.

- ماذا تفعلين؟

- ما لك أنت ماذا أفعل.

- أتعصين أمر والدي من أجل خطيبك؟

- أنا لي الحق في تلك السلسلة كوالدي تمامًا.

- اتركيها الآن!

- لا لن أتركها، اذهبي إلى حجرتك واتركيني!

تقترب مني أختي تُحاول خطف السلسلة مني، يقع بيننا شجارٌ شديدٌ فأدفعها بعنفٍ بعيدًا عني لتسقط على الأرض وتسيل الدماء من بين فخذيْها.

تصرخ وتنوح على ابنها المنتظر الذي فقدته وأنظر ناحية الباب لأجد أبي ينظر إلينا والحسرة تملأ عينيه؛ لا يتحمل قلبه المريض العجوز ما حدث فيسقط ميتًا بيني وبين أختي.

أجلس وحدي في المنزل بعد وفاة أبي وبعد أن ذهبت أختي لتقيم عند خالتي بعد حادثها الأليم، لم تعد تطيق أن ترى وجهي بعد ما حدث.

أسمع طرقاتٍ خفيفةً على الباب، أقوم لأفتح لأجده أمامي.

أنت؟ ألا يكفيك ما فعلت بنا؟ دمرت أسرة سعيدة بجشعك وطمعك، اذهب عني ولا تريني وجهك مرةً أخرى.

- جشعي وطمعي؟ ألم تُوافقي على خطتي وتسعين في تنفيذها؟ أنا لم أكن أدري أن الأمور ستتطور بهذا الشكل، هذا قدَرهم ونصيبهم.

- ماذا تريد الآن؟

- أريد السلسلة.

- بعد كل ما حدث تريد السلسلة؟ ألا يوجد عندك حياء لتطلبها مجددًا في ظل تلك الظروف التي أمرُّ بها.

- لن تُعطيها لي اذن؟

- بالطبع لا، اغرب عن وجهي!

يُخرج لي طبنجة كان يضعها وراء ظهره ويُصوبها نحوي.

- أتريد قتلي بعد أن قتلت أبي وأجهضت أختي؟

- أنت مَن فعلتِ بهم هذا، ولن أتركك تفسدين لي مخططي الذي خططت له منذ أن عرفت أن ابنة محمود الكيلاني معنا في المركز.

- أتعني أنك لم تحبني؟ كان كل هذا الخداع من أجل حفنةٍ من الأموال، آه منك يا غدار يا خائن.

- لا تتحدثي كثيرًا، ائت لي بالسلسلة الآن!

أذهب تحت تهديد السلاح وأضع السلسلة في يده.

- كيف تعمل؟

اضبط المؤشر الموجود في غرفة المعمل على العام الذي تريده واضغط على الزر الموجود في السلسلة.

- وعندما أريد العودة؟

- اضغط على الزر مرةً أخرى ستعود إلى زماننا.

يضبط المؤشر على العام ١٩٤٥.

- أهلًا بك أيتها الثروة، أهلًا بك أيها النعيم، إلى اللقاء أيتها البلهاء.

ويضغط على الزر ويختفي من أمامي.

إلى اللقاء أيها الساذج، تريد أن تفلت بفعلتك بعد أن دمَّرت حياتي، أظننت أنني أساعدك في تحقيق حلمك الذي فقدت من أجله أبي وأختي وأيامي السعيدة كلها؟ أنت واهمٌ، لم أكن لأفعل ذلك حتى لو قتلتني.

أذهب إلى المؤشر وأحركه عدة مرات، مرة إلى العام ٢١٥٠، مرة إلى العام ٣٠٠٠ قبل الميلاد، أختار عدة اختيارات عشوائية ثم أجلس مبتسمةً لأول مرة منذ أسابيع.

سأتركك تائهًا بين الأزمان لا حول لك ولا قوة، الزمن سينتقم لي منك أيها المُخادع الكاذب.

أضغط على زر تشغيل المشغل الموسيقي ليتدفق صوت أم كلثوم يشجيني كما لم يشجني من قبل وهي تشدو:

هسيبك للزمن لا عتاب ولا شجن
تقاسي من الندم وتعرف الألم
تشكي مش هاسأل عليك
تبكي مش هارحم عينيك
ياللي ما رحمتش عينيا لما كان قلبي في إيديك
دارت الأيام عليك

***

كُلثُوميَّات

فات الميعاد

وعايزنا نرجع زي زمان..
قول للزمان ارجع يا زمان

انتفض قلبي كبركانٍ خامدٍ منذ مئات السنين فجأةً تناثرت حِمَمُهُ الملتهبة في كل مكان، كان كطينٍ جافٍّ تشقق من العطش ليجد سيولًا من ماءٍ هادرٍ تُعيد إليه الحياة حينما رأيتها.

التقت أعيننا في ذهولٍ غير مُصدقين تلك المصادفة التي لم تخطر على بال أحدنا قط.

أبعد كل تلك السنوات من الهجران نلتقي مرةً أخرى؟ أتذكَّر جيدًا آخر مرة التقينا فيها، كانت تبكي بحرقةٍ وهي تُخبرني أنها لن تستطيع أن تُكمل معي، كنتُ لا أفهم نصف كلماتها وسط نحيبها الذي لا ينتهي.

أصابتني كلماتها في مقتلٍ، كانت كل حياتي، كيف أعيش يومًا بدونك؟ عندما يتطاير شَعرك كنت أتمنى أن أكون النسيم الذي يمر عبر خصلاته الناعمة، عندما تضحكين ضحكتك التي تملأ الدنيا بالسعادة أتمنى أن أكون أنا سبب ضحكتك، عندما تتركينني وتذهبين أتمنى أن أكون كل مَن حولك، قائدو السيارات الذين بجانبك المارة في الشوارع حولك، الباعة الجائلون الذين يمرون عليك، عسكري المرور الذي يشير إليك لكي تمري حتى الشحاذين الذين يطلبون منك صدقة، أتمنى أن أكون حولك في كل مكانٍ، أنا وأنت فقط في الكون نملؤه بالعشق والحب إلى الأبد.

وكانت تلك هي المشكلة، أنا وهي فقط، هذا هو ما كنتُ أريده، كنتُ أريدها لي وحدي، لا يُشاركني فيها أحد، كانت تُسميه غيرة في البداية وكان هذا الشعور يُسعدها كثيرًا ولكن مع الوقت سمَّته حب امتلاك.

لا تكلمي هذا! لا تتحدثي مع تلك! أين كنتِ؟ متى رجعتِ؟ لا تخرجي اليوم! كان هاتفك مشغولًا مع من كنتِ تتحدثين؟ لا تذهبي إلى أقاربك! ابتعدي عن تلك الصديقة فأنا لا أرتاح لها، لِمَ تُريدين العمل سأعطيك مثل مرتبك وأكثر، شيئًا فشيئًا بدأت تشعر أنها بلا شخصيةٍ، أنها تغرق في بحري الغريق وتذوب في دواماته التي تجذبها إلى الأسفل، انطفأ بريقها مع الأيام وأصبحت تشعر أنها وحيدة في هذا العالم، إنها مُخترقة دائمًا وشكي يُحيط بها من كل مكان.

تحدثنا في الأمر كثيرًا ووعدتها مرارًا أنني سأتغير ولكن لا حياة

لمن تُنادي، أعود دائمًا أسوأ من ذي قبل حتى فاض بها الكيل بعد معاناة سنوات الجامعة وقررت أن تتركني وحدي.

لم يخفق قلبي بعدها لأحدٍ غيرها، قابلتُ كثيرين ولم يدق قلبي لسواها وظللت وحيدًا إلى الآن، الآن فرصتي لأستعيد نفسي وحياتي وبهجتي معها حبيبة القلب وأميرة العمر.

يا للمصادفة، رأيتُ صديقي وجاري من أيام المدرسة يُمسك بيد ابنته الصغيرة، لم أره منذ أن تركوا منزلهم وسافر أهله إلى إحدى الدول العربية، ظلت بيننا بعض المكالمات كل حين حتى توقفت مع مرور الزمن، كان أقرب أصدقائي إليَّ، صدفة غريبة أن أراهما هما الاثنين في يومٍ واحدٍ.

أتوجه إليها لعلي أنجح في استعادة الأيام الخوالي لأجده يتجه ناحيتها وتذهب البنت إليها لتحتضنها في حنان، يضع يده على كتفها وينطلقون بعيدًا عني وآخر ما أراه منهم نظرة منها لا يلحظها سواي بها كل أسى وشجن السنين.

أتسمَّر في مكاني كأن أحدهم ثبتني في الأرض بمسامير، كيف ولماذا؟ كيف التقوا وتزوجوا؟ لماذا هم بالذات؟ كان خط عمري يمشي مع خط عمره في الدراسة والجيرة، خط مليء بالذكريات السعيدة وافترق خطي من خطه ليكمل كل خط منا حياته ثم التقى خط عمري مع خط عمرها لسنواتٍ ليفترق خطي مرة أخرى وتكمل هي خط حياتها، أكمل أنا خطي وحيدًا حتى تشاء الأقدار وتلتقي خطوطهم مع بعضهم بعيدًا عني بلا أي ترتيب.

افترقت خطوطي عن خطوطهم ليلتقوا هم في مدارٍ آخر؟ تعرَّجت خطوطهم بعدي في دوامات الحياة ليلتقوا في خط مستقيم معًا كنت أتمنى أن يكون خطي أنا معها.

آه من تلك الخطوط التي تتحكم في مصائرنا، تتشابك وتفترق ونحن لها مستسلمون لا نقوى على شيء، تأخذنا يمينًا ويسارًا في مداراتها ذات المليون احتمال.

اااااااااه لو يعود بي الزمن لأجعل خطوطنا تتحد بلا رجعةٍ، لأجعلهم يتشابكون في عقدةٍ لا يستطيع أحدٌ فكها، يا ليت الزمن يعود بي مرةً أخرى.

يعود بي الزمن إلى الوراء؟ كيف لم تأتِ في بالي تلك الفكرة؟ لِمَ لا أستخدم اختراع عمي رحمه الله؟ أعلم أن بنات عمي مررن بفاجعةٍ رهيبةٍ بسببِ هذا الاختراع بعد أن أجهضت ابنة عمي طفلها التي كانت تنتظره من الدنيا وبعد أن توفي عمي كمدًا عليها ولكن ها قد مرَّت سنونٌ على هذا الأمر وآلة الزمن ما زالت في مكانها لم يستخدمها أحدٌ منذ ذلك الحين، بنات عمي يعلمن بحكايتي معها ويُدركن حالي بعد فراقها ولا أعتقد أنهم سيُمانعون في أن أعود بالزمن إلى وقت فراقنا لأمنعه وإلى الأبد.

تظبط ابنة عمي المؤشر على التاريخ الذي أريد العودة إليه، أمسك بالسلسلة التي ستُعيدني مرةً أخرى إلى زماننا الآني بعد أن أصلح ما أفسدته من قبل مع حبيبة قلبي، أضغط على الزر وأنا أمني نفسي بكل السعادة والبهجة والسنوات الرائعة التي سأقضيها معها.

أرى حياتي كصورٍ فوتوغرافيةٍ متتابعةٍ، ما هذا؟ تتحول السلسلة في يدي شيئًا فشيئًا إلى ذراتٍ تدور في فلكها ثم تختفي، أشعر أن هناك من يعبث بذاكرتي وتختفي صور ذاكرتي الواحدة تلو الأخرى.

تبًّا، كيف لم أفطن إلى هذا من قبل؟ أنا أعود إلى الماضي بدون ذاكرتي الحالية، بدون جميع الأحداث التي مررت بها من قبل، فحاضري الآن هو مستقبلي في الزمن الذي سأعود إليه، ومن منا يعرف مستقبله؟ سأعود إلى نفس الشخص ونفس التصرفات ونفس القرارات التي اتخذتها في حينها بدون علمي الحالي لما مررت به في حياتي من وقتها إلى الآن، سأعودُ بنفس المُعطيات والاختيارات، سأعود وأتركها مرةً أخرى وأتعذب مرة أخرى لسنواتٍ عديدةٍ حتى ألتقيها مع زوجها جاري وصديقي القديم وتأتي إليَّ فكرة آلة الزمن وأذهب إلى بنات عماتي وأضغط الزر ثم أعود مرةً أخرى وأتركها مرة أخرى وسأظل حبيس تلك الدائرة المُفرغة إلى أبد الآبدين وبدلًا من عذاب الهجر مرةً واحدةً سأعانيه مراتٍ ومراتٍ، كان يجب أن أعلم أنه قدري الذي لا فكاك منه.

ألا ليت الشباب يعودُ يومًا....

***

النَّظرَة

عندما ينتشر الخبرُ أنه في الطريق تجد المبنى كله عبارة عن خلية نحل، لا تجد أحدًا ساكنًا سواه، صديقي وزميلي، الجميع يجري في كلِّ مكانٍ كالفئران المذعورة ينتظر وصوله اليومي كأنه سيأتي للمرة الأولى.

ما أن يتوقف موكبه الضخم الفخم حتى تتحول تلك الخلية لسكونٍ تام لاستقباله، كأن الشلل أصاب الجميع والصمت يُخيم على أرجاء المبنى.

يدخل بخطواته الواثقة المتكبرة وأوداجه المنتفخة وأمامه الحرس مفتولو العضلات بنظاراتهم الشمسية التي يرتدونها في الشمس والظل كأنهم وُلدوا بها ليجد الجميع يقفون في جميع الممرات في استقباله ملتصقين بالحوائط بصمغٍ مؤقتٍ ينتهي مفعوله حين يصعد إلى مكتبه.

يدورُ بنظراته المُتربصة لأي خطأ، تلك النظراتُ التي تشملُ الجميعَ حتى يصلَ إلى عرشه العالي.

لم أرَ في ضخامته من قبل، ضخم الجثة تشعر أن أزرار قميصه

الغالي وبزته الأنيقة تكاد تنفجرُ من الدُّهون المُترسبة على جسده الكبير حتى إن ذراعيه تكادان تلمسان الموظفين المتراصين على الجانبين في الممرات الواسعة الذين يشعرون بضآلتهم الشديدة بجانبه.

إذا دخل إلى مكتبه بسلامٍ ولم يُعلق على أي شيء- رغم قلة هذا الأمر- تنفس الجميعُ الصعداء مؤقتًا انتظارًا لتلك الرحلة اليومية التي لا تنتهي، ولكن إذا لمح شيئًا لم يُعجبه زعق بصوتٍ كنعيق الغربان يجعل جميع طيور العالم تهرب مسرعةً خائفةً في أعشاشها، كهزيم الرعد قاسٍ يملأ الدنيا غيومًا، لم يره أحدٌ مبتسمًا من قبل كأنه لو ابتسم لتساقط وجهه المتيبس من التجهم الدائم.

لم أدخل مكتبه من قبل طوال سنوات خدمتي سوى مرةٍ واحدةٍ، كان يُريد مراجعة أوراق بعض المشروعات وكان الموظفُ المختص في إجازةٍ، ما أن علمتُ أنه يُريدني أن أذهب إليه حتى تيبست أطرافي من الخوف والرهبة، أشعرُ كأنني سأقابل ملك الموت بلباسه الأسود القاتم ومنجله الحاد.

دخلتُ أجرُّ قدميَّ مرتعشًا لأجده ككائنٍ أسطوري يجلسُ على كرسيه الفخم وأرطال اللحم تخرج من جانبيْ المقعد ينظر إلى أوراقٍ أمامه، لم يُكلف خاطره بأن ينظر إليَّ، فمن أنا حتى أنالَ شرف نظرةٍ منه، مجرد حشرةٍ في مملكته لا قيمة لها، أضع الأوراق أمامه على المكتب وأنتظر الإذن بالانصراف الذي لم يأتِ أبدًا فأظل بضع دقائق لا أدري ماذا أفعل حتى أفقد الأمل وأعود بظهري إلى الخلف إلى أن أصطدم بالباب لأخرج مسرعًا حامدًا الله أن الأمر تم

عـلى خـيرٍ عـلى غـير العـادة.

يُقابلنـي صديقـي وأنـا أمسـح قطـرات عَرقـي كأننـي كنـتُ أجـري أميـالًا.

– ما بك؟

– مرَّ لقائي معه بسلام.

– لا أدري لِمَ تعملون له ألف حساب هكذا.

– ألـف حسـاب؟ هـو الآمـر الناهـي هنـا، بكلمـةٍ منـه يرفعنـا إلى أعـلى عليـين وبنظـرةٍ منـه يخسـف بنـا الأرض، رزقنـا ورزق أولادنـا بيـده، مَـن ينـال رضـاه يُسـكنه أعـلى الجنـان ومـن يسـخط عليـه يُسـكنه إمـا نـارًا موقـدة أو غيابـة السـجن، قاسـيًا لا يرحـم أحـدًا، بُعـدك عنـه أو قُربـك منـه يُغـير حياتـك للأبـد.

– أنتم تُعطونه أكبر من حجمه.

– أنـت الـذي تعيـش في الأوهـام وتبغـي المدينـة الفاضلـة التـي لم ولـن تتحقـق أبـدًا.

– سنرى.

يدخـل عـلي صديقـي بعـد عـدة أيـامٍ والبِشْرُ بـادٍ في قسـمات وجهـه، سـعيدًا كـما لم أره مـن قبـل.

– ألم أقل لك؟

– ماذا حدث؟

– حدث تغييرٌ في المناصب اليوم.

– أهذا ما يُسعدك هكذا؟ لقد مرَّ عليه عشرات التغييرات وهو لابثٌ في مكانه كأخطبوط ضخم يمد أذرعه في كل مكانٍ، أصبح هو وهذا المبنى كيانًا واحدًا، لا يُمكن فصلهما.

– بل سيمشي اليوم، أنا عاكفٌ منذ شهورٍ على جمع أوراقٍ من هنا وهناك تُثبت تورطه في رشاوى وصفقاتٍ فاسدةٍ مشبوهةٍ وقدمتُها للجهات المختصة واتخذوا قرارًا بفصله من منصبه اليوم تمهيدًا لمحاكمته.

– أتمزح معي؟

– لا بالطبع، فلننتظر ونرى ما سيحدث.

فجأةً يحدث هرج ومرج شديدان في المبنى ونسمع سرينات سيارات الشرطة، يمتلئ المبنى بعشرات من رجال الشرطة يملأون كل ركنٍ ويتقدمهم ثلاثة ضباط تمتلئ أكتافهم بالنسور والنجوم ويدخلون مكتبه كأنهم يقتحمونه اقتحامًا.

يخرجون وهم يُمسكون برجلٍ قصيرٍ نحيفٍ هزيلٍ لا يكاد يُبين، ننتظر أن يخرج هو بعدهم ولكن بلا جدوى.

– أرأيت لم يقبضوا عليه، ضاع تعبك لشهورٍ في كشف فساده، ولكن مَن هذا الرجل الذي قبضوا عليه؟ إنها المرة الأولى التي أراه هنا؟

– مَن هذا الرجل؟ إنه هو!

– ليس هذا وقت مزاح.

– أنا لا أمزح، إنه هو ولكنني قلتُ لك من قبل إنكم تُعطونه أكبر من حجمه، هذا هو حجمه الحقيقي الذي كنتُ أراه عليه وكنتُ أتعجب عندما يتعجب الجميع من ضخامته الشديدة، إنه منصبه الذي كبَّره في عيونكم، خوفكم منه ومن جبروته ومن ظلمه، أعطيتموه هيبةً لا يستحقها، كنتم ترونه طالما هو في منصبه كتنينٍ ينفث نيرانه في كل مكان، كثورٍ هائجٍ ناري يُدمر كل ما أمامه من أخضر ويابس، ما أن زال منصبه و«هيلمانه» عنه حتى عاد إلى حجمه الطبيعي وأقل، إنها نظرتكم إليه هي التي اختلفت لا أكثر ولا أقل.

تحوَّلت نظراتُ التعجب التي ملأت وجوه الجميع إلى نظرات فرحة وشماتة ممن أضرهم بظلمه ونظرات حزن وسخط ممن شملهم برعايته، ومشى هو منكسرًا لا يستطيع رفع وجهه عن الأرض تخترقه نظراتنا جميعًا من أعلاه إلى أسفله، إلى أسفل حيث مكانه الطبيعي.

***

حتَّى تَأْتِي العَاهِرَةُ

إنها المرة الأولى التي تحدث فيها جريمة قتل في بلدتنا منذ عشرات السنوات، وبتلك البشاعة؟! أهل القرية مُسالمون أكثر من اللازم لا يقوى أحدهم على قتل فرخة. أنا شيخ غفر منذ أكثر من عشر سنوات ولم أرَ منظرًا كهذا في حياتي يا باشا.

نظرت إليه ثم ألقيت بنظري بخبرة ضابط المباحث على الجثة المسجاة أمامي المضرجة في دمائها المليئة بالطعنات أكثر من خمس عشرة طعنة محطمة الجمجمة لامرأةٍ في العشرينيات من عمرها.

- هل لها أعداء؟

- لا يا باشا فهي لم تأتِ إلى القرية سوى منذ شهرٍ واحدٍ فقط، وكان قدومها نحسًا على البلدة؛ يوم أن جاءت انقلب الجوُّ من مشمسٍ بهيجٍ إلى غائمٍ كئيبٍ وانقطعت الأمطار حتى جفَّ الطين وتشقق، حتى القطط والكلاب لم تجد خشاش الأرض لتأكله.

- وماذا كانت تفعل في هذا الشهر؟

– لقد جاءت بتوصيةٍ خاصة من المأمور لتُنهي رسالة الماسج... ماج...

– الماجستير؟

– نعم، الماجستير عن أشياء تخص حياة الفلاحين، جهَّز لها العمدة البيت الكبير في أقصى البلدة ووفر لها كل سبل الراحة ولكنها لم تحترم وجودها وسطنا.

– ماذا تعني يا شيخ الغفر؟

– كانت تجوب البلدة بملابس لا تليق بنا، فساتين قصيرة بلا أكمام؛ كان الكل يتعجب ويُمصمص شفاهه كلما مرَّت أمامنا، تضحك لهذا وتمزح مع هذا وتتحدث مع ذاك حتى ظن كل منهم أنه المُقرب إليها المُحبب؛ والأنكى من ذلك هذا العشيق.

– عشيق؟ هنا في البلد؟!

– كان يأتي في ظلمة الليل ويتركها في ظلمة الليل التالي في سريةٍ، ولكن لا شيء يخفى على أحدٍ هنا في البلد.

– قد يكون زوجها؟

لا، فالعمدة أخبرنا حين جاءت أنها ليست متزوجةً، الكل كان يحتقرها في سره وفي الجلسات الخاصة ولكن لم يكن أحدٌ يجرؤ أن يجهر بالقول، فهي من طرف المأمور.

– إذن فالشكوك قد تحوم حول هذا العشيق؟

–لا يا باشا، لم يدخل الفاجر البلدة قبل الحادث بثلاثة أيام.

– مَن تظن إذن فعلها؟

- لللا، مممم،لا لا أدري.

- أشعر أنك تعرف شيئًا وتُخبئه عني.

- لا لا يا باشا لا أعلم شيئًا.

أذهب إلى دوار العمدة فيستقبلني العمدة بترحابٍ مبالغٍ فيه:

- أهلا أهلا يا باشا نوَّرت الدوار.

- أهلًا يا عمدة، لا وقت للترحاب والكلام، الدنيا مقلوبة على تلك الفتاة المقتولة، ماذا تعلم عن هذا الموضوع؟

- لا أعلم إلا كما تعلم أنت.

- أنت العمدة وليست لديك معلومات؟

- إذا توافرت لي معلوماتٌ سأبلغها لك في التوِّ؛ أنا من مصلحتي أن أعرفَ القاتل.. أنت لا تعلم كم الهمِّ الذي أنت فيه منذ هذا الحادث المشئوم من المأمور والمديرية والمحافظة، أريد أن أفرغ من هذا الأمر اليوم قبل الغد.

أمر في الطرقات الخاوية على غير العادة، كلما مررتُ على منزلٍ أسمع صوت إغلاق الأبواب في وجهي، كأنهم يُرسلون رسالةً إليَّ أنني غير مرغوبٍ في وجودي؛ أشعرُ بنظراتهم تخترقُ ظهري من وراء النوافذ كسهامٍ ناريةٍ.

لا أجد سوى بعض الصبية يلعبون، ما أن رأوني حتى انطلقوا بعيدًا كأنهم رأوا شيطانًا مريدًا، تصطدم قدم أحدهم بصخرةٍ كبيرةٍ فيسقط على الأرض متأوهًا، أذهب إليه وأمدُّ يدي لأساعده فيصرخ في رعبٍ:

لا تحبسني! ابتعد عني أنا لا أعلم من قتلها.

أفاجأ من رده فأهدئ من روعه وأمسك بيده:

- لن يحبسك أحدٌ، ولكن قل لي ماذا تعلم!

- لو قلتُ لك شيئًا سيقتلونني كما قتلوها هم قالوا لنا ذلك.

- هم؟هم كثيرون إذن؟

- مهلًا يا باشا، ماذا تريد من هذا الصبي؟

أنظر خلفي لأجد العشرات من أهل البلد يقفون خلفي يملأ الغضب وجوههم كأنهم خائفون من إفشاء سرهم العلني الذي يعلمونه جميعًا.

- أنا لا أريد منه شيئًا كنتُ فقط أساعده.

- اتركه وشأنه إذن!

يبتعد الصبي ويجري رغم ألم قدمه الملحوظ كأنه يهرب إلى آخر الدنيا ووجهه مليء بالخوف من نظراتهم الصارمة نحوه.

- إذا أردت أن تعلم شيئًا فليكن ذلك في تحقيقٍ رسمي وإلا..

- أتهددونني أم ماذا؟! أنا أستطيع أن أحبسكم جميعًا.

ينفضون جميعًا من حولي وخلفهم شيخُ الغفر ينظر إليَّ نظرات تعاطف يُخبئها بسرعةٍ خوفًا منهم.

يدخل عليَّ شيخ الغفر مكتبي وهو في غاية الارتباك.

- خير يا باشا؟

– ومن أين سيأتي الخير وأنتم لا تريدون أن تتحدثوا، أنت عندك معلومات كثيرة وتُخفيها عني، وإذا لم تقلها لي سأتهمك بتضليل العدالة وإخفاء معلومات تُعرقل سير القضية وأعزلك من منصبك هذا إذا لم تُسجن، وأنت تعلم أهمية تلك القضية للقيادات في مديرية الأمن إن لم يكن بالوزارة ذاتها.

– يا باشا أنا غلبان وعندي أطفال أريد أن أربيهم.

– حفاظًا على أطفالك من الأفضل أن تتكلم بما تعلم.

– حسنًا، ولكن عدني أنك لن تُخبرَ أحدًا أنني قلتُ لك شيئًا.

– لك هذا، هيا تحدث!

– منذ أن جاءت تلك الشيطانة إلى البلد وانقلب حال القرية كلها، لم يكن هناك حديث غير عنها، الرجال على المقاهي والنساء في الغيطان حتى الأطفال في الطرقات. الرجال يتغزلون في مفاتنها وكل منهم يتباهى بالنظرة أو الضحكة التي تلقاها منها، والنساء الغيرة تنهش قلوبهن كالأسد الجسور عندما يلتهم ضحيته، حتى مسجد القرية الذي لم يكن يخلو من المُصلين أصبح خاويًا مهجورًا، هجر الرجال نساءهم في المضاجع ولم يعد يُسمع سوى صوت الشجار في منازل القرية، كانت القرية تعيش في سلام حتى مقدمها، كانت كأنها تستمتع بنظرات الرجال النهمة لجسدها ونظرات النساء المكلومة على أزواجهن، كانت تقصد الضحك والمزاح والجلوس مع الفلاحين بحجة إكمال دراساتها حتى ظن كل منهم أنها لا تُحب سواه، وتناسى الجميع أمر هذا العشيق كأنه غير موجودٍ بالمرة. حتى بدأت زيارات رجال القرية إليها واحدًا تلو الآخر بحجة نصحها وأن يطلبوا منها

أن تترك البلدة فورًا، وعادوا جميعًا يقولون إنها رفضت وأصرت على البقاء مما أثار حفيظة بعض نساء القرية وذهبن جميعًا إليها ليلة الحادث.

- أتعني أنهن مَن...

- أنا لا أعني شيئًا ولا أعلم شيئًا، لقد قلتُ لك كل ما لديَّ.

- ائت لي بالنساء اللاتي ذهبن إليها!

أصاب الذعر شيخ الغفر لما قلت:

- لا يُمكن يا باشا، أنت تعرف عاداتنا وتقاليدنا، أنت هكذا ستُعيد إشعال النار التي كدنا أن نطفئها، لن يسمح لك أحدٌ بهذا.

أمسك بسماعة الهاتف وأتصل بالمديرية:

لقد عرفتُ القاتل، أريد تعزيزاتٍ أمنيةً هنا في القرية بأسرع وقت.

أصبحت البلدة كالثكنة العسكرية، الجنود في كل مكانٍ يُحاصرون القسم ومنازل القرية.

تدخل نحو عشر نساء إلى مكتبي وهن ينظرن إليَّ نظرات اللامبالاة.

- لا داعي للإنكار، وردت إليَّ معلوماتٌ أنكن آخر من ذهبتن إلى القتيلة قبل الحادث، ما أقوالكن في هذا؟

أشارت إحداهن إليهن أن يصمتن وتقدمت إليَّ في شجاعةٍ أحسستني برهبةٍ شديدةٍ.

- سأقول لك الحقيقة، ولكن على شرط أن يكون هذا كلامًا وديًّا ليس في محضرٍ رسمي.

صمتُّ قليلًا؛ أعلم من نبرة صوتها أنها لن تتحدث إلا إذا وافقت على شرطها فأومأتُ لها بالإيجاب.

– لن ننكر أننا ذهبنا إليها، تلك العاهرة التي أفسدت حياتنا وأفسدت البلدة بأكملها؛ نعم ذهبنا إليها وكل منا تحمل سكينًا لنقتلها ولكننا لم نفعل.

– لِمَ لَمْ تفعلن؟

– عندما رأتنا خافت وسألتنا عما نريد، فقلنا لها نريد الانتقام لإغوائها لأزواجنا فطلبت منا أن ننتظر قليلًا وجاءت لنا بهاتفها المحمول وأسمعتنا ما لم نكن نتوقعه، أسمعتنا ما جعلنا نخرج من عندها ذليلات منكسرات الهامات.

– ماذا أسمعتكن؟

– أسمعتنا تسجيلاتٍ سجَّلتها سرًّا كلما زارها أحدٌ من أزواجنا؛ كانوا يقولون لنا إنهم ذهبوا ليطردوها من القرية ولكنها كانت ترفض وتغويهم على الرذيلة؛ ما سمعناه كان العكس تمامًا، كان كل منهم يعرض نفسه عليها وأنه مَن سيُسعدها وأنه يعلم مِن نظراتها ومزاحها معه أنها تُحبه فكانت تنهرهم وتطردهم شر طردة وتكسر كرامتهم ليعودوا إلينا كاذبين مُدَّعين الشرف والكرامة.

– إذن مَن قتلها؟

نظرن جميعًا إلى بعضن في خبثِ مَن يعلم ولا يُفصح:

لا نعلم، لقد استيقظنا مثلك على خبر مقتلها يجوب القرية ولكن لا نكتمك سرًّا لقد كان أسعد خبرٍ سمعناه في حياتنا أن تخلصنا وإلى الأبد من شرورها تلك الأفعى.

خرجت النساء من القسم وأنا أنظر إليهن من النافذة، ذهبت كل منهن إلى زوجها يمسك بيدها ويربت على كتفها، ونظر جميع الرجال إليَّ في نظرةٍ متشفيةٍ ساخرةٍ؛ نظرة الهارب من العقاب، قتلوها جميعًا، طعنها كل زوج منهم طعنةً تخلص بها من ذله الذي أذاقته له، طعنة لكبريائه الذي انكسر، لحياته التي كادت أن تُدمر بسببها، لخطيئته التي ما كان يُصدق أنه سيقترفها، لشرفه المزعوم الذي أريق على أعتابها، تآمروا عليها جميعًا بعد أن انكشف أمرهم أمام زوجاتهم وأمام أنفسهم ليعود الأمر كما كان قبلها، ليُصبح كأن شيئًا لم يكن، كلكم قتلة، كلكم خائنون، كلكم شرفاء حتى تأتي العاهرة.

***

الاخْتِيَار

عبر هادي الشارع في سرعةٍ غير عابئ بالسيارات المُسرعة، صدمته إحدى هذه السيارات فطار عاليًا في الهواء و..

- إستنى إستنى هو إيه اللي طار عاليا وبتاع، تبتديها كده بحادثة؟ مش عاجباني البداية دي.

- هو إيه اللي مش عاجبك، أنا المؤلف أكتب اللي أنا عايزه.

- وأنا بطل القصة. أنت من غيري ولا حاجة. ينفع تكتب قصة من غير بطل؟

- مم.. عندك حق. طيب عايز بداية إيه؟

- أتمشى في جنينة كده أقابل واحدة أتعرف عليها، كده يعني مش حادثة ودم.

- حاضر يا سيدي، أما نشوف آخرتها معاك.

دخل هادي إلى الحديقة الغنَّاء المليئة بالأزهار فوجدها أمامه.

- خليهالي بنت حلوة.

بهرته بجمالها فلم يستطع أن يُقاوم رغبته في التحدث إليها. مبسوط كده؟

- كمِّل كمِّل!

قطف إحدى الورود اليانعة ذات العبير الرائع واتجه بخطواتٍ خجولةٍ ناحيتها.

- إيه خجولة دي إن شاء الله، ليه ناقص إيد ولا رِجل.

واتجه بخطواتٍ واثقةٍ ناحيتها.

- هل تقبلين مني تلك الزهرة؟ رغم أن المهدَى إليه أجمل بكثير من الهدية، فجمالها لا يُساوي شيئًا في جمالك البريء الذي سحرني منذ أن رأيتك تمشين في رشاقة وسط الزهور كملاكٍ يطير بطيفه فاتنًا الجميع حتى أصبح جمال الورود بلا معنى بجوار جمالك.

طرااااخ.

- إيه ده إيه ده؟

- واحدة أول مرة تشوفها وعمَّال تعاكسها وتغازل فيها عايزها تعمل إيه؟ لازم تضربك بالقلم طبعًا.

- إنتى جايبني في القصة دي تهزقني، ما ينفعنيش الكلام ده، هاسيبهالك وأمشي، بقولك خليها تحبني.

- أنا مش مقتنع بالكلام ده بس خليني وراك أما نشوف هتودينا على فين.

نظرت إليه نظراتٍ مليئةً بالخجل واحمرَّت وجنتاها حتى أصبحتا لون الورد المنتشر حولهما؛ لم تستطع الكلمات أن تخرج من فمها

الرقيق، كلماته جعلتها تطير إلى عوالم أخرى، عوالم لم تخضها من قبل، فهي لم تسمع مثل هذا الكلام الحنون من قبل فرفرف قلبها بالحب من أول كلمة.

- إيه رأيك كده؟ مع إن ما فيش لوجيك خالص في الموضوع.

- ما لكش دعوة، خليك في حالك.

أمسك بيدها في حنان وانطلقا وسط الحدائق يتحدثان كأنهما يعرفان بعضهما البعض منذ سنوات، اتفقا على موعد المقابلة القادمة وترك يدها بصعوبةٍ، أحس أنه يترك روحه معها، شعر أنه أجوف فارغ بدون وجودها بجانبه، كيف سيتحمل بُعدها عنه عدة أيام مُقبلة؟

مرَّت الأيام قبل اللقاء كسنواتٍ مديدةٍ، كان لا يشغل تفكيرهما سوى متى ستلتقي أيديهما مرةً أخرى ليشعرا بدفء العشق والغرام يسري في جسديهما، كانا يباتان يحلمان بهذا اليوم الموعود.

التقيا في نفس مكان لقائهما الأول، نفس الحديقة الغنَّاء، ما أن رآها هادي حتى أمسك بيدها فسرت في جسده قشعريرة كأن تيارًا كهربائيا شديدًا اجتاحه جعله تائهًا عن الدنيا وما فيها لا يرى سواها.

- وحشتيني أوي يا.... هي اسمها إيه صحيح؟

- معرفش!!

- متعرفش إزاي مش إنت المؤلف.

- ما إنت سربعتني المرة اللي فاتت ملحقتش أفكرلها في اسم، ممكن نسميها وردة بما أنكوا في جنينة وكده.

- حلو اسم وردة. وحشتيني أوي يا وردة.

قالت بخجلٍ وهي تنظر إلى الأرض: وإنت كمان.

تعددت لقاءاتهما في نفس المكان الذي لم يتغير لشهور، ذكرياتهما كلها أصبحت في هذا المكان، أصبح العشق يربط قلبيهما برباطٍ أبدي وردي كأنهما وُلدا ومصيرهما متوحدٌ معًا. لا يشغل بالهما سوى كيف يُسعدان بعضهما، لا مجال للأحزان بينهما.

رجع هادي إلى بيته بعد يوم عملٍ شاق، تحدَّث مع وردة هاتفيًّا قبل أن ينام، فلقد أصبح لا تُصيبه سِنَةٌ من نومٍ قبل أن يسمع صوتها الهادئ الرقيق ونام بعدها بلحظاتٍ.

حلم كأنه حقيقة، يمشي في نفس الحديقة ويجلس وحده على الحشائش ينتظر وردة ولكنها لا تأتي، تمر فتاة أخرى شديدة الجمال شقراء ذات عينين زرقاوين صافيتين كسماء الربيع واسعتين كعينيْ المها، يتبادلان نظرات الإعجاب ثم تتركه وتذهب بعيدًا.

يستيقظ من النوم شاعرًا بتأنيب ضمير، كيف يشعر بإعجابٍ تجاه أخرى غير وردة محبوبته حتى ولو في حلمه.

تكرر ذلك الحلم بعدها عدة مراتٍ، مرة تجلس بجانبه ويمسك بيدها، مرة يحتضنها في حنانٍ، حتى أصبح ينتظر ميعاد النوم ليراها في أحلامه، أصبح يشتاقُ لأحلامه معها.

أثرت هذه الأحلام على عَلاقته بوردة، أصبح يشعر أنه خائنٌ لأن مشاعره تحركت تجاه فتاة أخرى، شعر أن شوقه لوردة بدأ يتوارى أمام شوقه لأحلامه، أصبح هناك فتور أحست به وردة وتغاضت

عنه يومًا بعد يوم حتى فاض بها الكيل وقررت مواجهته بالأمر.

جلسا معًا في الحديقة يتناقشان في علاقتهما وهو يُقسم لها أن لا أحد غيرها في حياته حتى رآها تمر من أمامه، نعم فتاة أحلامه مرَّت أمامه، تتبعها بعينيه كأنه منومٌ مغناطيسيا حتى جلست غير بعيدٍ عنهم، أكمل كلامه مع وردة بدون أن يسمع ولا كلمة مما تقولها، كان كل تركيزه وحواسه مع فتاته الشقراء الجالسة بجانبهما.

ما رأيك فيما قلته، قالتها وردة بانفعالٍ منتظرة رده الحاسم على كلامها الذي لم يسمع منه شيئًا.

– وردة يجب أن نأخذ فسحةً من الوقت لنراجع عَلاقتنا ومشاعرنا، لا يوجد داعٍ للاستعجال في قرار الزواج فهو قرارٌ مصيري يجب ألا يُؤخذ بتسرع.

ترقرقت الدموع في عينيْ وردة وتركته مع أفكاره المشوشة وذهبت، رآها تبتعد وروحه تبتعد معها.

قطف إحدى الورود اليانعة ذات العبير الرائع واتجه بخطوات واثقة ناحية فتاة الأحلام.

– هل تقبلين مني تلك الزهرة؟ رغم أن المهدَى إليه أجمل بكثير من الهدية، فجمالها لا يُساوي شيئًا في جمالك البريء الذي سحرني منذ أن رأيتك تمشين في رشاقة وسط الزهور كملاك يطير بطيفه فاتنًا الجميع حتى أصبح جمال الورود بلا معنى بجوار جمالك.

طرااااخ.

– تاني قلم تاني.

– حاولت أخليها ما تضربكش بالقلم يا هادي بس ما قدرتش ولا هي رضيت، قالتلي إزاي أثق في واحد ساب حبيبته عشان أضغاث أحلام، أنا واحدة جتله في المنام ساب الحب اللي كان بيدور عليه طول عمره عشاني، إزاي أكمِّل حياتي مع واحد خاين زي ده.

– جاي تقولي كده دلوقتي بعد ما وردة سابتني، بعد ما ضيعت من إيدي اللي ملكت قلبي وكياني وإدتني السعادة اللي عمري ما شفتها قبل كده.

– ده كان اختيارك يا هادي، إنت اللي ما كانش عاجبك الطريق اللي كنت بارسمهولك واخترت طريقك، أنا جبتهالك في أحلامك بس ما قلتلكش تسيب وردة عشانها.

– ابعد عني لازم ألحق وردة، لازم أفهمها على كل حاجة.

– استنى يا هادي استنى!

– بس بقى كفاية اللي عملته فيا وحياتي اللي دمرتها.

رأى هادي وردة تعبر الشارع إلى الجانب الآخر.

– استنى بس اسمع كلامي!

عبر هادي الشارع في سرعةٍ غير عابئ بالسيارات المسرعة، صدمته إحدى هذه السيارات فطار عاليًا في الهواء و..

❋❋❋

القَرْيَةُ الصَّامِتَةُ

أخيرًا أجد المكان الذي أريده. مكان جميل وهادئ بعيدًا عن صخب وزخم العاصمة وزحامها. منزل صغير مكوَّن من طابقين له حديقة صغيرة مليئة بالورود والأزهار ذات الألوان الفاقعة والعبير الرائع. قال لي السمسار إن هذه القرية لم يدخلها الغرباء منذ سنواتٍ وإن أهلها يكرهون دخول غريب في وسطهم. كيف لا يأتي الناس إلى هذا الجمال؟ ألبعدها عن أماكن طلب الرزق والطريق غير الممهد شبه المهجور المؤدي إليها؟ أما أنا فأريد هذا الهدوء لأفرغ من روايتي الجديدة التي أردت التفرغ لكتابتها بعد أن ألهتني الحياة والمشاغل عنها لعدة أشهر فلم أجد سبيلًا لإكمالها سوى هذا المكان الذي نصحني الكثيرون بعدم الذهاب إليه خوفًا من وجودي وحدي وسط تلك الكآبة كما يُسمونها. أنا لا أعتبره مكانًا كئيبًا أبدًا فأنا مُحب للهدوء وأكره الضوضاء والإزعاج كثيرًا. إنها مدينتي الفاضلة التي طالما بحثت عنها منذ زمن. منزلي الوحيد في القرية المكون من طابقين، منازل سكانها جميعًا مكونة من طابقٍ واحدٍ بسيط من الطوب اللبن وأسقفها من جريد النخل والقش.

أفرغ من نقل حاجياتي وترتيبها في منزلي الجديد وأشعر بالجوع الشديد فجأة، لم يدخل فمي طعام منذ الصباح الباكر رغم المجهود الكبير الذي بذلته اليوم. أرتدي ملابسي وأنزل لأبحث عن أي مطعم أو مكان آتي به ببعض المعلبات. أمشي كثيرًا فلا أجد أحدًا أسأله حتى أجد ضالتي أخيرًا. متجر صغير يُقدم بعض المشويات فأدخله. السلام عليكم.. ينظر إليَّ رواد المطعم في استغرابٍ واضحٍ يتحول إلى نظرات عدم ترحيب ثم لا مبالاة. السلام عليكم.. مَن المسئول هنا؟ يخرج لي أحد العاملين من الداخل وينظر لي بضيقٍ شديدٍ. أريد نصف فرخة مشوية وطبقًا من الأرز وأعطيه النقود وأجلس أنتظر الطعام. أنا جارٌ جديدٌ لهم كنت أتوقع منهم ترحابًا أكثر من ذلك. ألهذا الحد يكرهون الغرباء؟ صنعوا لأنفسهم جيتو أو معزلًا يعيشون فيه بعيدًا عن من يختلفون عنهم، ومعزلهم مستقر منذ سنوات إلى أن جئت أنا لأحرك مياههم الراكدة وأهدم استقرارهم النفسي الذي اكتسبوه من انعزالهم عن البشرية جمعاء. يضع لي الطعام في سكونٍ وألتهمه في سرعةٍ ونظراتهم جميعًا موجهة إليَّ كأنني حيوانٌ خرافي أو كائن أسطوري.

أعود إلى منزلي متعبًا أتمنى رؤية السرير وما أن أغمضت عينيَّ حتى استيقظت في رعبٍ على صوت ارتطام رهيب وزجاج يُكسر. أذهب بسرعةٍ إلى مصدر الصوت أجد شباك الشرفة مكسورًا وبجانبه أحجار ضخمة. أنظر إلى الأسفل أجد ثلاثة من أطفالهم يجرون بعيدًا. حتى الأطفال لا يريدونني وسطهم؟

أستيقظ مبكرًا لأبدأ في الكتابة، أجهز أوراقي وأقلامي وأكتب

وأكتب وأكتب. الجو مُنعش يُساعدني كثيرًا على الكتابة. لم أكتب بهذا الصفاء الذهني منذ زمنٍ.

أنزل إلى السوق لأشتري حاجياتي عسى أن أجد أحدًا أتحدث معه. أريد أن أسمع صوت بشر في هذا المكان العجيب. أنظر إلى الوجوه حولي، كلها عابسة مقطبة الجبين. أتنقل من محل إلى محل أختار ما أريد بنفسي فلا أحد يرد عليَّ. أرجع إلى بيتي لأنام قليلًا، عندما لا أكتب أهرب من الملل بالنوم فهو شعورٌ بغيضٌ أن يكون الناس حولك ولا تستطيع الكلام معهم. أشعر أني أنا المختلف وليس هم. أن العيب فيَّ أنا وليس فيهم.

أستيقظ اليوم التالي وأنزل إلى الطابق الأرضي لأتناول فطوري فأجده تحت عقب الباب، ظرف أبيض صغير أفتحه فأجد ورقة بيضاء ليس فيها سوى كلمة واحدة «ارحل».. ما لهؤلاء الناس لا يُطيقون وجودي هكذا. لا لن أرحل من هنا، إنه منزلي الذي أحببته كثيرًا ولن أتركه من أجل سخافاتكم.

أنزل لأتنزه قليلًا في وسط الحقول الخضراء الشاسعة، أمرُّ بين من يحصد ويزرع وأشعر بالتوتر يسري بينهم وأشعر بنفس النظرات الكئيبة المتأهبة تخترقني كرصاصاتٍ مؤلمةٍ وخناجر حادة. ألاحظ شيئًا عجيبًا، الصمت الذي يخيم عليهم دائمًا انتقل منهم إلى حيواناتهم! لم أسمع لقططهم مواء ولا نباحًا لكلابهم ولا نهيقًا لحميرهم. حتى الحيوانات صامتة ذلك الصمت المزعج الذي يسيطر على تلك البلدة. جئت هنا بحثًا عن الصمت والهدوء فوجدته في أبهى صورةٍ بدرجةٍ لم أكن أتخيلها. مللت من الصمت وأزيزه المزعج في أذني. أريد أن أسمع

مزاحًا، شجارًا، أي شيء يشعرني بالحياة. أشعر بأني وسط مقابر فيها الأموات أحياء يُرزقون. كيف يعيشون بلا أصواتٍ، بلا كلماتٍ؟!

يجب أن أعرف سر هذا العزوف عن الكلام.

أستقل عربتي وأخرج من القرية ذاهبًا إلى السمسار الذي أتى بي إلى هنا. يستقبلني بابتسامة من يعرف سبب مجيئي. قلتُ لك إنهم لا يُرحبون بالأغراب.

– نعم ولكن لم أتخيل أن يكون الوضع هكذا، ماذا فعل بهم ذلك؟ ماذا جعلهم يفضلون هذا الصمت الرهيب؟

– سأشرح لك، المنزل الذي تسكنه كان ملكًا لعمدة القرية، كان رجلًا جبَّارًا طماعًا يحكمهم بالحديد والنار، يستولي على أموالهم ومحاصيلهم وحتى نسائهم. له رجالٌ شداد مسلحون لا يسمحون لأحد بالاعتراض، لم يكن أحد من الأصل يستطيع أن يعترض سوى بعض شباب البلد المتحمس الذي كان يظن أن صوته له قيمة وسيغير من الأوضاع ويقضي على الظلم. ولكن هيهات. الاختفاء كان مصير مَن يحتج ويُحاول تشجيع الناس على الغضب. يختفي وتظهر جثته بعدها بأيام مشوهة ملقاة في الترعة. ظل الوضع هكذا حتى لم يعد أحدٌ حتى أشجعهم على أن يقول لا أو حتى أن يقول نعم. صمتوا جميعًا عن الظلم والقهر. صمتوا عن كل شيء. أصبح الصمت هو سمتهم جميعًا كالنوم والجوع والعطش حتى بعد أن مات ذلك الظالم لم يتخلوا عن صمتهم أبدًا، لُعنوا بصمتهم الأبدي. هذه هي حكاية تلك القرية التي تسكنها الآن. أنت الوحيد الذي لديه صوتٌ هناك ولا تأمل في سماع صوت أحد غيرك.

وأنـا في طريقـي عائـدًا قـررت أني سـأجبرهم عـلى الـكلام هـؤلاء المعاتيه. ذهـب مـن كان يُخيفهـم فما الداعي لاستمرارهم في هـذا الخبل. الصمـت كان صرختهـم الخفيـة ضـد الظلـم حتى فقـدوا الرغبـة في الحيـاة. الصمـت أحيانًـا يتحـدث حينما تعجـز الكلـمات. قربهـم الصمـت مـن بعـض حتى أشـعرهم بقوتهـم أمـام الخـوف. إذن الخـوف هـو مـا يُحركهـم، سـأجعلكم تنطقـون، إمـا أنـا أو أنتـم.

أذهـب إليهـم في السـوق المزدحـم الصامـت، أصرخ بأعـلى صـوتي أيهـا الجبنـاء رحـل مـن كان يجبركـم عـلى الصمـت فتكلمـوا، تكلمـوا وارفعـوا أصواتكـم، أسـكتكم الخـوف سـنينًا فهيـا تخلصـوا مـن خوفكـم وأصـدروا أصواتًـا، اشـعروا بالحيـاة في كلماتكـم. دفنكـم خوفكـم أحيـاء فأزيلـوا الـتراب مـن عـلى قبوركـم وعـودوا إلى حيواتكـم.

اجتمـع أهـل البلـدة جميعهـم حـولي يُلقوننـي بنظـراتٍ ناريـةٍ، اقتربـوا منـي حتـى صنعـوا حـولي دائـرة مُغلقـة تضيـق حـولي شـيئًا فشـيئًا. بـدأ الخـوف يتسـلل إلى نفـسي. مـالي أنـا ومالهـم هـؤلاء المجانـين، مـاذا جعلنـي أتهـور وأشـغل نفـسي بخوفهـم وضعفهـم. يقتربـون منـي وأرى في وجوههـم رغبـة في الانتقـام. يريـدون الانتقـام مـن الظلـم الـذي وقـع عليهـم والانتقـام لقتلاهـم وأعمارهـم التـي أضاعهـا الخـوف هبـاء في شـخصي الضغيـف. تملكنـي الخـوف الشـديد. ابتعـدوا عنـي اتركـوني. يقتربـون أكثـر وأكثـر وهـم لا يعبـأون بـأي شيء سـوى أن يفتكـوا بي. آب.. آببـب.. ابتتععـد.. ابتتتعـددواا عننييـي. مـاذا يحـدث لي؟ إني أتلعثـم في الـكلام، أشـعر بعقـدةٍ في لسـاني، كأن هنـاك طعامًـا سـاخنًا في فمـي يمنعنـي مـن الحديـث. ألجمنـي الخـوف وسـيطر عـلى جسـدي

كله. لا تتقققتتللوونننني. ألمح لأول مرة شبح ابتسامة على وجوههم. أحاول التوسل إليهم ولكن لا تخرج الكلمات من فمي. يُصيبني خرسٌ مماثلٌ لخرسهم. اقتربوا مني أكثر حتى لامست أيديهم جسدي. أشير لهم بيدي أحاول استمالتهم للمرة الأخيرة. فجأة يتوقفون جميعهم في مكانهم. كأن أحدًا ضغط على زر الإيقاف في أحد أجهزة الفيديو القديمة. ينظرون إليَّ وأنا لا أستطيع أن أخرج كلمات من حلقي الذي لا يخرج منه سوى بضع حشرجات خائفة ويرجعون كلهم إلى الوراء ويمشون في طريقهم كالقطيع كأن شيئًا لم يكن. أمشي وراءهم مشدوهًا كأني منوم مغناطيسيًّا في صمتٍ جديدٍ إضافة الخوف إلى صمتهم الأبدي. خفت مثلهم فأصابتني لعنة صمتهم، صمت لم يتركني أبدًا طوال حياتي معهم في تلك القرية التي بقيت فيها إلى آخر حياتي، في القرية الصامتة.

***

اللُّعبَةُ الأَخِيرَةُ

جئتُ لكم بلعبةٍ لتسلينا في السهرة في المصيف.

قالها محسن لأصدقائه الثلاثة مهاب وحسن ومصطفى وهم يستقلون سيارة مهاب الفارهة تشق طريقها إلى العجمي.

لعبة غريبة وجدتها عند أحد بائعي الأنتيكات في وسط البلد، أعجبني شكلها ونقوشها العجيبة وابتعتها برغم تحذيرات البائع لي أن أستخدمها للزينة فقط ولا ألعب بها،

ها نحن وصلنا.

يصلون لشاليه محسن ونسمات الليل الهادئة تداعبهم، شاليه قديم مكون من دورين متهالكين بحديقة صغيرة صفراء جرداء يقبع وحده في بقعةٍ مهجورةٍ على البحر مباشرة.

يتسمَّرون جميعًا في أماكنهم.

– هل أنتم خائفون أم ماذا؟ لا تخافوا أنا آتي إلى هنا كثيرًا وأحيانًا آتي وحدي، المكان أمان.

يفتح محسن الباب الذي يصدر صوت صرير كأنه لم يفتح منذ سنوات ويدخل ويضيء الأنوار.

بعض الأثاث القديم وحمَّام ومطبخ وسلالم تقود إلى الطابق الأعلى. يصعدون ويضعون أمتعتهم ويجلسون ليتسامروا قليلًا، فهم أصدقاء منذ سنواتٍ وتعرَّفوا مؤخرًا على مهاب في أحد المقاهي قريبًا وأصبحوا أصدقاء منذ هذا الحين.

- ما رأيكم أن نبدأ في اللعب؟!

يدخلون إلى إحدى الغرف ويخرجون اللعبة من علبتها المرسوم عليها بعض الرسوم والنقوش المُخيفة من وجوه شياطين قبيحة ليجدوا أنها عبارة عن لوح خشبي كبير به بعض المربعات وأربعة تماثيل مرعبة وقطعتين من الزهر.

لستُ مطمئنًّا لتلك اللعبة، أشعر أنها تبدو كويجا أو جومانجي.

ما أن يجلسوا حتى يسمعوا صوت ارتطام الباب. يفزعون جميعًا ويقوم أحدهم ليفتحه.

- الباب لا يفتح.

- ماذا تعني؟

يُحاولون فتح الباب يستعصي عليهم جميعًا.

- أهلًا بمهاب ومحسن وحسن ومصطفى. اجلسوا وابدأوا اللعب لن تخرجوا من هنا قبل أن تنهوا اللعبة.

يرجعون جميعًا إلى الخلف ليلتصقوا بالحائط من الرعب بعد أن سمعوا هذا الصوت المبحوح كفحيح الأفعى يخرج من اللعبة واندلعت النيران في جميع أركان الغرفة ثم انطفأت.

- اجلسوا!

تأمرهم اللعبة بصوتها الصارم فيجلسون جميعًا في رعبٍ.

هيا ابدأوا!

يضعون تماثيلهم على نقطة البداية ويلقي محسن الزهر.

يُحرك تمثاله إلى المربع الذي وجَّهه إليه الزهر.

- هذا مربع من أنت، هيا قل لي أفضل صفاتك!

- أنا.. أنا... صادقٌ جادٌّ في عملي وفيٌّ.

تظهر كتلةٌ أخرى من اللهب بعنفٍ في جانب الغرفة.

- لا تكذب وإلا أحرقتك بتلك النيران، أنت خائن.

- لا لست خائ....

- اخرس! الخيانة قد تكون بنظرةٍ، بكلمةٍ، بهمسةٍ، وأنت لم تكتف بكل ذلك، لا خيانة بدون ثقة قبلها، وأنت بنيت جدار الثقة بينك وبينه يومًا بعد يوم حتى هدمت كل شيء في لحظةٍ شهوانيةٍ تملكت منك.

- هي التي أوقعت بي، كنتُ أقاومها وأحاول الابتعاد عنها خوفًا على عَلاقتي معه ولكنها لم تتركني في حالي.

- ليس مبررًا أبدًا لتخون صديق عمرك مع زوجته.

- عمن تتكلمون؟

- عن زوجتك يا حسن، صديقك وزوجتك خانوك، استغلا ثقتك بهما وبُعدك الدائم عن البيت لظروف عملك وفعلاها، يخدعانك منذ شهورٍ وأنت لا تدري شيئًا.

احمرَّ وجه حسن وأخرج مطواة من جيبه وأشهرها في وجه محسن.

– لا تتهور يا حسن، أتصدق تلك اللعبة الملعونة وتكذب صديق عمرك، أنا لم أفعل شيئًا يا صديقي لم أفعل شيئًا.

يغرس حسن مطواة في قلب محسن وتتفجر الدماء.

لاااا. يصرخ مهاب ومصطفى: لن نكمل لن نكمل، أنقذونا!!!!.

– لن يسمعكم أحد، ستجلسون وستكملون رغمًا عنكم.

يذهب مصطفى ناحية النافذة ويُحاول فتحها، فيسقط على الأرض وهو يصرخ من شدة الألم كأن صاعقةً أصابته.

– لن تستطيعوا الخروج، فجنودي من الجان يُحيطون بالمكان وهم يأتمرون بأمري، لن تخرجوا إلا بعد أن تكتمل اللعبة. هيا اجلسوا!

صرامة الصوت وتهديداته لا تتركان لهم الاختيار.

–هيا يا مصطفى دورك الآن!

يُلقي مصطفى بالزهر في خوفٍ.

– هذا مربع ماذا تفعل لو كنت مكاني. قل لي يا مصطفى لو كنت سببًا في أذى لأحد وبكلمة منك ستخرجه من أزمته ماذا كنت ستفعل؟

– كنت سأفعل ما بوسعي لأنقذه مما سببته له.

– وأنت يا حسن؟

– بالطبع أنا أيضًا.

– كاذب، ماذا فعلت عندما نسيت المخدرات في سيارة مصطفى وعندما تم إيقافه في لجنة اليوم التالي وقبض عليه وسجن بتهمة

حيازة مخدرات؟ هل ذهبت واعترفت على نفسك أم تركته يواجه مصيره مظلومًا في السجن؟

- أنت يا حسن؟ أنت من اضعت ثلاث سنوات من عمري في السجن؟ لقد سألتك ساعتها فنفيت بشدة وظننت أنهم لفقوا لي تلك التهمة ووضعوا لي المخدر لأنني تشاجرت مع الضابط عندما أراد أن يفتش السيارة. لقد أضعت مستقبلي، لم أجد عملًا بعد أن خرجت بعد أن كنت مهندسًا محترمًا في شركةٍ محترمةٍ وكل شيء في يدي، أضعت كل شيء مني في لحظةٍ، أنت لا تستحق سوى مصير محسن الخائن.

يُمسك مصطفى بالمطواة الملقاة على الأرض ويهاجم حسن ويجرحه في كتفه، يستمر الشجار والطعنات المتبادلة حتى يسقط الاثنان على الأرض مضرجين في دمائهما.

لم يبق سواك الآن يا مهاب، لم أكن أتوقع أن تنتهي اللعبة بتلك السرعة، مممم، أتعلم، لقد قررت أن أنهي اللعبة الآن، سأتركك وحدك هنا بدون طعام ولا شراب وسط الجثث والدماء حتى تتعفن وتظهر روائحهم التي لا تُطاق وستتمنى الموت ألف مرة في اليوم ولا تجده، إلى اللقاء.

يجلس مهاب على الأرض ناظرًا لأصدقائه الملقين حوله، يقوم ببطء شديد ويمسك بالمطواة ويقطع شرايين يده منتظرًا مصيره المحتوم.

هيا قوموا لقد مات!

يقولها محسن وهو يقوم من مرقده فيقوم حسن ومصطفى معه يمسحان أيديهما من الدماء الزائفة ويضغط محسن على زر فصل التيار

الكهربائي عن النافذة الموجود أسفل المنضدة التي كانوا يلعبون عليها.

يأخذ المطواة من يد مهاب ويمسح بصماتهم ويُعيدها إلى يده مرةً أخرى.

يخرج مفتاح ويفتح الباب ليجد صديقهم الرابع أمامهم.

أجدت فعلا في تقمص صوت اللعبة، والخدع التي تعلمتها في معهد السينما حبكت الدور تمامًا.

يُخرج هاتفه المحمول.

أهلًا يا باشا، تمت المهمة بنجاح، لا يهم كيف مات.. المهم أن الوريث الوحيد لملايين عمكم قد مات بدون أي مسئولية جنائية عليكم أو علينا والتركة الثقيلة ستكون لكم بعد أن يموت والده في المستشفى الذي يقضي به آخر أيامه، المهم لا تنسوا بقية حسابنا العشرة ملايين جنيه بعد أن تسووا أمور الميراث. سلام يا باشا.

***

مَجْنُونَة يَا كُورَة

باقٍ من الزمن ثلاثون ثانية على تحقيق الحلم، لا ليس حلمًا إنه معجزة بكل المقاييس، معجزة الفوز بكأس العالم، نحن المنتخب الذي لم ينجح في التأهل لكأس العالم سوى مراتٍ تُعد على أصابع اليد الواحدة ولم نسجل سوى هدف واحد من ضربة جزاء عشنا على ذكراه لعقودٍ من الزمان حتى إن إحدى شركات المحمول قامت بحملةٍ إعلانية ضخمة معتمدةٍ على هذا الهدف بعد حوالي ربع قرن من تسجيله، هذا المنتخب باق له ثلاثون ثانية ليرفع كأس العالم، الكأس الغالية التي لو قال أكثر المتفائلين في العالم إننا سنصل حتى إلى دور الثمانية لنُعت بالمجنون. كان منتهى أملنا هو التمثيل المُشرف حتى بدأنا مباراة تلي الأخرى نُثبت أقدامنا في البطولة وأصبح فوزٌ يجر فوزًا، ظاهرة ليستر سيتي كما وصفنا الإعلام، ليستر سيتي كان فريقًا يصارع الهبوط في الدوري الإنجليزي الممتاز أقوى دوريات العالم وفي العام الذي يليه بمدرب طموح وإمكانيات محدودة ولاعبين شباب مغمورين مليئين بالحماس أصبحوا يُنافسون على الفوز بالدوري وسط

كبار الساحرة المستديرة حتى فازوا به في مفاجأةٍ أذهلت العالم. تكرر هذا معنا ولكننا لسنا لاعبين مغمورين، فلقد فزنا ببطولاتٍ قاريةٍ كثيرةٍ ساندنا فيها الجماهير بشدةٍ حتى أصبحنا أبطالًا أسطوريين يُقابلنا الناس في الطرقات بترحابٍ كنجوم السينما ويطلبون إمضاءاتنا والتصوير معنا، كنا سبب فرحة الملايين في زمن قلَّت فيه الفرحة.

ها نحن أولاء متقدمون على المنافس بهدفٍ رغم هجماته الشرسة المتكررة، ولكن هيهات فأنا أقف لهم بالمرصاد، أوقفت هجماتٍ كثيرةً لهم من انفرادات محققة كانت كفيلة بتغيير نتيجة المباراة، أقف كمانعٍ صخري أبعد الكرات عن المرمى قبل حتى أن تصل إلى حارس المرمى، تهتف الجماهير باسمي بعد كل هجمة منهم وبعد كل تألق مني، اسمي يخرج من أفواههم كهدير الموج العاصف يرج الإستاد رجًّا؛ من المؤكد أنني سأحصل على جائزة أفضل لاعب في المباراة بعد أن نرفع الكأس بعد نصف دقيقة فقط نغير فيها التاريخ.

لم آتِ هنا إلى هذا المكان والزمان التاريخيين بسهولةٍ، كنتُ طفلًا ألعب الكرة الشراب في الشارع حتى قدَّمت في اختبارات نادي هيها وأعجبوا بمستواي في الدفاع، كان المهاجمون يمرون مني بصعوبةٍ بالغةٍ منذ صغري، حتى اشتراني نادٍ آخر يلعب في دوري المظاليم بخمسة آلاف جنيه ولعبت له موسمين وكان أجري مائتي جنيه شهريا ووجبة غداء، لم يكن راتبي يُسمن ولا يُغني من جوع ولكن عشقي لكرة القدم هو من صبَّرني على حالي حتى جاءتني فرصة عمري، سنلعب مع النادي الأهلي في دور الـ ٣٢ من كأس مصر، النادي الأهلي بنجومه وإعلامه، ستُذاع المباراة في التلفزيون وتراني مصر كلها، قدمت في

هذه المباراة مستوى رائعًا حتى إن النادي الأهلي فاز علينا بصعوبةٍ على غير المتوقع بركلة جزاء لم أكن أنا المتسبب فيها. بعد تلك المباراة كنت حديث الناس في مصر وتعاقد معي الأهلي فورًا.

قدَّمت مواسم رائعة مع النادي الأهلي حتى أصبحت من أشهر مدافعي الكرة المصرية؛ أصبحت وجهًا إعلانيا تتصارع الشركات الكبرى عليه، أصبحت ضيفًا دائمًا في البرامج التلفزيونية والرياضية؛ المائتا جنيه في الشهر أصبحت ملايين سنويا؛ الأضواء مسلطة عليَّ أينما كنت، أصبحت أشعر أنني لا أستطيع الحياة بدون تلك الأضواء والشهرة، أصبحت جزءًا لا يتجزأ من حياتي، إحساس رائع أن يحبك الجميع من قلوبهم ويشعرونك أنك واحدٌ من عائلتهم وسبب فرحتهم. انضممت للمنتخب للمرة الأولى وقدمت مستوى رائعًا في البطولات القارية التي فزنا بها، أصبحت معشوق الجماهير وسيتغنون باسمي أكثر بعد عشر ثوانٍ من الآن حين أرفع كأس الكئوس؛ هيا أطلق صافرتك أيها الحَكم! آخر هجمة للفريق المنافس تُرفع الكرة للمهاجم ولكنها تجدني أمامها بدلًا منه، أخرجها برأسي خارج الملعب..... ما هذا؟! لقد دخلت الشبكة.. أدخلتها في شباك مرماي، لم يحدث معي هذا من قبل، لحظاتٌ من الصمت رانت على الجميع، لحظاتٌ قصيرةٌ مرَّت عليَّ كسنواتٍ طوالٍ، لا أحد يُصدق ما حدث، كأن الجميع يظنون أنه حلمٌ سيفيقون منه بعد قليلٍ، صمت رهيب ثقيل حلَّ على الإستاد بعدها حدث الانفجار، انفجر لاعبو الفريق المنافس

وجمهورهم بالأفراح والهتافات وانفجر لاعبونا في البكاء والانهيار

وجمهورنا بالسباب والشتائم الموجه لي، موجه لي وحدي، الآلاف لا همَّ لهم سوى توجيه الإهانات لي، إنه أنا أيها الجمهور الذي حصدت معكم البطولات والأمجاد وأوصلتكم إلى هذا المكان الذي لم تكونوا تحلمون به؛ إنه أنا الذي كنتم تفتخرون بي دائمًا وتهبون لتحيتي والتصوير معي في أي مكان، نسيتم تاريخي كله في لحظة غفلت من الزمان؟ الإنسان تاريخٌ وليس موقفًا أيها المنافقون.

ازدادت الهتافات ضدي خاصة بعد أن أحرز الفريق الآخر هدف الفوز في الوقت الإضافي في ظل انهيار معنويات فريقنا الذي كان على بعد ثوانٍ من المجد، على بُعد ثوانٍ من إنجازٍ لن يتكرر مرةً أخرى أضعته أنا. ولكن لا، إنهم بعض الجماهير الموتورة المتحمسة، عندما أعود إلى بلادي سأعود بطلًا كما كنت، سينسى الجميع ذلك الخطأ غير المقصود وسيتذكرون ما فعلته وقدمته لهم من قبل، لن يكون مصيري مثل إسكوبار اللاعب الكولومبي الذي أدخل هدفًا في مرماه أيضًا في كأس العالم ١٩٩٤ وأسهم في خروج منتخب بلاده فقتله بعض المشجعين المختلين بأن أطلقوا عليه الرصاص في إحدى الحانات؛ جمهوري الحبيب سيغفر لي، جمهوري الذي رفعني إلى أعلى السماوات وأحبني وشجعني بإخلاص طوال السنوات الفائتة ورفعني فوق الأعناق، الذي أعطاني حياةً رائعةً ما كنت أحلم بها، جمهوري الموجود حولي في كل مكان، جمهوري الذي ذدت له عن مرماي ببسالة طوال سنوات وأهديت لهم بطولاتٍ كثيرةً ووصلت معهم إلى هذا الإنجاز العظيم، فنهائي كأس العالم لم يكن أحد يتصور أن نلعبه، لن ينسى كل ما فعلته من أجله من أجل خطأ واحد، نعم

سأعود إلى جماهيري الوفية لا تلك القلة الخائنة المنافقة التي تصبُّ على لعناتها الآن.

كتب حسين السيد:

في حادثٍ أليمٍ هزَّ أوساط الرأي العام انتحر اللاعب الشاب مدافع المنتخب الوطني الذي أدخل هدفًا في مرماه في نهائي كأس العالم منذ أسابيع وأضاع حلم الملايين.

قابلنا المقربين من اللاعب وقالوا لنا إنه أصيب بحالة اكتئابٍ حادةٍ بعد رجوعه، فقد أصبح منبوذًا حتى وسط زملائه في المنتخب الذين حملوه مسئولية خروجهم من النهائي التاريخي، وإنه حين ينزل إلى الشارع أصبحت الجماهير تنظر له نظرات اللوم والاحتقار بالإضافة إلى الشجار معه في كل مكانٍ يذهب إليه وتهديدات بالقتل تأتي له في رسائل على هاتفه وإلى منزله فأصبح لا يُغادر بيته أبدًا، وسحبت شركات الدعاية عقود إعلاناتها معه متحججةً أنه لم يُصبح أهلا أن يكون وجهها الدعائي بعد أن انقلب عليه الجميع فاعتزل الدنيا وقرر الانتحار هربًا من تلك الحياة الجديدة التي لم يعتد عليها من قبل. فليرحمه الله ويُدخله فسيح جناته.

***

أسْعَد رَجُلٍ فِي العَالَم

شعرتُ أنني أريد أن أكتب تلك الكلمات لأفرغ مكنونات نفسي على الورق، لا أحد سواي يعلم عن تلك المشاعر التي سأخطها الآن، فالجميع يُلقبونني بأسعد رجل في العالم منذ أن تعرضت لهذا الحادث الأليم منذ عامين، شرح لي الأطباء وقتها حالتي وقالوا لي إنني حالة نادرة لم يروا مثلها من قبل، ظللت عدة أسابيع بين الحياة والموت في المستشفى حتى تم شفائي من كل الأعراض عدا عرض واحد ظل معي إلى الآن، إنني لا أحزن أبدًا!

حادث سير يوم عيد ميلادي السابع والثلاثين أدى إلى إصابتي في رأسي وأثر بشدة على الفص الأيمن الأمامي من المخ المسئول عن المشاعر جعل أحاسيس الحزن تختفي من حياتي تمامًا، أصبحت سعيدًا دائمًا.

سخرت من الأطباء وقتها، فهذا أمرٌ لم يمكنني استيعابه في البداية ولكن مع مرور الأيام اكتشفت صحته، لم أذرف دمعةً واحدةً منذ ذلك اليوم والابتسامة تملأ وجهي دائمًا حتى في أحلك الظروف.

كان الجميع يحسدونني على هذا الشعور، فتلك أمنية يتمناها الجميع في هذا العالم البائس الذي نعيش فيه، وأنا أيضًا كنتُ مرتاحًا لهذا الشعور من منا لا يريد أن تفارقه الأحزان إلى الأبد وتمتلئ حياته بالسعادة مهما كانت ظروفه سيئة مثلي فأنا ظروفي ليست على ما يُرام وكنت من قبل أفكر في بؤس حياتي ليلا ونهارًا، أعمل نجارًا باليومية، يوم أجدُ عملًا وأيامًا لا أجد قوت يومي؛ لديَّ ثلاثة أبناء منهم ابنة مولودة بمرض خطير في القلب تحتاج إلى علاج بمئات الجنيهات شهريًّا وأسكن في عشة صغيرة فوق سطح أحد المنازل لا تقينا من حر الصيف أو مطر الشتاء.

كان الحزن لا يُفارقني أبدًا، كيف أدبر حياة كريمة لعائلتي الصغيرة وكيف أوفر علاجًا لابنتي.

كنتُ في البداية سعيدًا جدًّا بسعادتي، أعمل أو لا أعمل سعيد، يوجد طعام في المنزل أو يبكي أبنائي من فرط الجوع سعيد، ابنتي تتألم أو لا تتألم سعيد، لا أحمل همَّ أي شيء، فليحدث ما يحدث لا يهمني، كل ما كنت أخشى مواجهته أصبحت أواجهه بكل سلاسةٍ فمهما حدث لن يجعلني أحزن، نسيت كل ما أحزنني يومًا ما ومكثت شهورًا غارقًا في أمواج السعادة بعيدًا عن شواطئ الأحزان، كنتُ أتمنى أن يظل الوضع هكذا وأظل سعيدًا إلى آخر عمري.

أصبحت أذهب إلى عملي الشاق مليئًا بالبهجة، ساعات من العمل الشاق بمقابل لا يُسمن ولا يُغني من جوع وأؤديه بلا تذمر كما كنت أفعل من قبل، أصبح زملائي يندهشون من ابتسامتي الدائمة ورضاي عن وضعي المزري، أذهب إلى منزلي بلقيماتٍ قليلةٍ

لأبنائي رغم عدم كفايتها ونظرات الجوع في أعينهم إلا أنني لا أحزن كالسابق على حالنا، كل ما كان يحدث لي في السابق ويبعث على الحزن أصبح يملؤني بسعادةٍ غامرةٍ لا تنتهي.

كنتُ أرى من قبل بعض الناس سعداء رغم مصاعب الحياة؛ كنتُ أندهش من قدرتهم على تجاوز أحزانهم بالصبر والرضا، كنت أتمنى أن أصبح مثلهم وحاولت كثيرًا وفشلت، كانوا سعداء بإرادتهم أما أنا فسعادتي دون إرادتي، كانت سعادتهم اختيارًا وسعادتي قدرًا.

لفترةٍ كنتُ أشعر كأن شعاع شمس السعادة الدافئ الحنون يخترق روحي ليطهرها من الأحزان بعد أن كانت ملاذًا للكآبة والظلام ولكنه الآن شعاع حارق يحرق الروح تدريجيًّا من الداخل.

فقد أصبحت مع مرور الأيام لا أشعر بالسعادة التي أشعر بها!

أصبح الموضوع مملًّا رتيبًا رتابة نقطة المياه التي تتساقط وخلفها مثيلتها في دقةٍ شديدةٍ لأيام لتجعل العقل يريد أن يصرخ فيها لتتوقف، يُقال إن تلك إحدى طرق التعذيب في الزنازين لإحداث انهيارٍ عصبي للسجناء.

كنت قبل الحادث أشعر بحلاوة السعادة في فمي عندما آتي لزوجتي وأبنائي ببعض الفاكهة والحلوى كل حين وأرى عيونهم تبرق بالفرح وتملأ ضحكاتهم المكان، كنتُ أشعر بالسعادة عند أول خطوة وأول كلمة تخرج من فمهم، عندما أرى السعادة في وجوههم كانت تهون عليَّ بعض مصاعب الحياة؛ أما الآن فطعم السعادة باهتٌ ماسخٌ بدون أحزان، كيف نشعر بدفء شمس الظهيرة ما لم نجرب برد الليل القارس؟ كيف نعرف قيمة الخير إذا لم نُصادف شرًّا في حياتنا؟ كيف نستمتع بمذاق الأشياء مهما كانت غالية أو شهية إذا لم

نجرب صنفًا آخر غيرها؟ كيف نعرف حلاوة الارتواء إذا لم نجرب العطش؟ فالأبيض يصبح أكثر بياضًا إذا وضع بالقرب من الأسود.

كانت اللحظة الفارقة لحظة وفاة ابنتي تأثرًا بمرضها، تقبلت الخبر وسط صراخٍ ونواحٍ من حولي بلا مبالاة، كنت أقف في العزاء وابتسامة بلهاء تملأ وجهي، من لا يعرف أمري ظن أن الصدمة أثرت على قواي العقلية ومن يعلم ما حدث لي يُحيطني بنظرات الشفقة والعطف.

حتى ابنتي وأغلى إنسانة في الوجود لا أستطيع أن أحزن عليها، تلك العين المتحجرة لا تذرف دمعةً واحدةً عليها؟ ذلك القلب القاسي لا يحزن لحظة واحدة؟

أصبحت حياتي كقطارٍ سريعٍ يمشي على قضبانه ولا يلقي بالًا لغيره، لا أطيق تلك الحياة الجوفاء الرتيبة المملة كبندول الساعة، كم أتمنى أن تعود الأحزان لتصبح حياتي ذات معنى، رغم بؤس حياتي فيما مضى كنتُ أتحملها أملًا في أي لحظة سعادة قد تأتي في أي وقت، أما الآن فللأسف لن أستطيع أن أحزن مرة أخرى حتى نهاية عمري، ولذا قررت أن أموت، ها أنا ذا أضحك وأقهقه من السعادة وأنا أبتلع عشرات الأقراص من مهدئ قوي سيقضي على في دقائق، لأول مرة منذ فترة أشعر بسعادةٍ حقيقيةٍ، سأترك تلك الرسالة بجانب جثماني لعل أحدهم يشعر بالحزن نحوي كما لم أستطع أنا ويتفهم لِمَا فعلت ما فعلت.

إمضاء:

أسعد رجل في العالم.

***

الثَّوْبُ المُبَقَّعُ
مِنَ التُّرَاثِ

يمشي في الأسواق يكاد يخرق الأرض ويبلغ الجبال طولا؛ يقف أمام كل بائعٍ يتباهى بأمواله التي لا تنفد بصوتٍ عالٍ ليسمعه القاصي والداني، يلبس طاقية ثمينةً مزركشة وحزامًا ذهبيًّا وحذاءً قيمًا ثمنه يُساوي مكسبهم في شهرٍ على الأقل وثوبًا لافتًا مغزولًا بماء الذهب.

ما أن يدخل السوق حتى تسمع تأففات البائعين وتغامزهم بين بعضهم، فهو يخسف بأسعار البضاعة الأرض وقلما يشتري شيئًا ويستغل حاجتهم وفقرهم المدقع لاستعراض غناه ويأخذ ما يريد بأبخس الأثمان.

السمن.. السمن الطازج يجعل الفول كطعم اللحوم والبيض لا يُقاوم طعمه.. السمن الطاااااازج.

كان هذا نداء بائعة السمن الشابة التي يحبها الجميع، مات زوجها منذ أعوام وتمر في الأسواق تبغي بضعة دراهم لتقيم صُلبها وصُلب أبنائها بلُقيماتٍ صغيرةٍ لا تُسمن ولا تُغني من جوع.

رغم ظروفها الصعبة لا تُفارق الابتسامة وجهها وعندما تظهر يتفاءل بها كل بائع ويعلمون أن الرزق في هذا اليوم سيكون وفيرًا وستتنزل بركات السماء عليهم.

يلمحها صاحب الثوب ويلفته جمالها الفتان.

- أنت يا شابة، تعالي هنا، أريني ما تبيعين!

تتنزل الرهبة بقلبها من صوته الرخيم العالي المُستعرض كصوت الحمير، تراه كثيرًا في السوق وتتجنبه لما تعلمه عنه ويعلمه الجميع.

- أبيع السمن الطازج.

- بكم الأوقية؟

- الأوقية بثلاثة دراهم.

- ثلاثة دراهم أيها اللصوص المستغلون؟ بكم تبيعينه لأمثالك في السوق؟ ألأنك رأيتِ أسيادك تضاعفين الثمن؟

- أقسم لك أن هذا هو سعره، أبيعه للجميع بهذا السعر.

تنظر حولها في خوفٍ تبتغي الطمأنينة ممن حولها ولكن الجميع يتظاهرون بالانشغال في طلب الرزق.

- سآخذ أوقيتين بأربعة دراهم.

- يا سيدي أنا أبيع السمن لأطعم أولادي اليتامى، وهكذا لن أعود إليهم بما ينتظرونه مني.

- أنت تبيعين أم تتسولين؟ سآخذهما بثلاثة دراهم لا أربعة وإلا اشتكيتك لكبير التجار ولا تلمس قدماك أرض السوق مرةً أخرى.

تترقرق عيناها الرقيقتان بدموع القهر والظلم وتخفت الأصوات في

السوق منتظرين ما ستسفر عنه تلك المواجهة؛ المواجهة التي تتكرر كل يوم مع أحدهم والجميع ينتظر مَن ينجح فيها، هذا النجاح الذي لا يأتي أبدًا وتعود ريما لعادتها القديمة، ربما لو رفض أحدهم مرة لساندوه وما تكرر الأمر ولكن الجميع ينتظر المهدي المنتظر المنقذ لهم من جشع هذا الطماع ولكنه لا يأتي أبدًا.

- حسنًا، كما تُريد، الأوقيتان بثلاثة دراهم.

تفشل المواجهة مرة أخرى ويعود الجميع إلى أعمالهم ونداءاتهم والغصة في حلوقهم منتظرين الغد الأفضل بأيدي غيرهم.

تُمسك الحسناء بجرتها وتضع له مطلبه في جرةٍ صغيرةٍ يُمسك بها فتتساقط بضع نقاط صغيرة من السمن على ثوبه الفاخر.

- ماذا فعلتِ يا مجنونة؟ لقد تبقع الثوب؟ أتدرين كم ثمنه يا حمقاء؟ إذا عملتِ عمرك كله لن تجمعي نصف ثمنه.

- أنا آسفة يا سيدي لم أقصد، سأمسح لك البقع وسيعود الثوب جديدًا كما لبسته أول مرة.

- ابتعدي عني بخرقتك القذرة تلك! لقد فسد الثوب ولن يعود إلى أصله، لن أتركك إلا وقد دفعتي لي ثمنه وإلا ألقيتك في غيابة السجن ولن تري أولادك اليتامى مرةً أخرى.

تنهار باكيةً وهي جاثمة على ركبتيْها لتقبل حذاءه اللامع مستجدية.

يعود الصمت المترقب ليخيم على السوق مرة أخرى، لا يُسمع سوى نهيق الحمير ومواء القطط.

- قومي! لا تلوثي حذائي أيتها الخرقاء!

– سامحني واعفُ عني يا سيدي! أولادي ليس لهم أحدٌ في تلك الدنيا القاسية سواي، سيتضورون جوعًا ولن يسأل أحدٌ عليهم في غيابي.

– لا يهمني ما تقولين، ما يهمني هو الألف درهم ثمن الثوب.

تصاعدت همهماتٌ من المُحيطين من ضخامة المبلغ كسرت الصمت الأسود القابع على صدورهم.

اشتد نبض قلبها المحمل بالهموم يكاد يكسر ضلوعها الضعيفة الفقيرة وهي تسمع ثمن الثوب الذي أوقعت عليه بقعتين بمبلغ لو تملكه لعاشت ملكةً متوجةً وسط أبنائها.

– أنا لا أملك حتى خمسة دراهم أبتاع طعامًا لأبنائي، كيف لي أن آتيك بألف درهم؟ ذلك مبلغٌ لم ولن أراه في حياتي؛ العفو والرحمة يا سيدي، ارحم ضعفي وفقري وقلة حيلتي وهواني على الناس.

– إذن هيا بنا إلى الشرطة أيتها الثرثارة السخيفة!

ومد يده غاضبًا ليجرها من شَعرها.

– توقف! اتركها حالًا لا تمد يدك عليها أيها المتغطرس!

لم يُصدق الجميع ما يسمعونه، ظن كل منهم أنه يحلم لولا أن صاحب الصوت كرر نداءه بصوتٍ أعلى من المرة الأولى.

ألقى صاحب الثوب المبقع بالفتاة أرضًا ومدَّ بصره إلى صاحب الصوت وعيناه يخرج منهما شرار غضب يكفي لحرق العالم أجمع.

– كيف تجرؤ أيها الفتى الهزيل أن تتحدث إلى أسيادك هكذا، ستأتي معي أنت الآخر إلى الشرطة لتنال جزاء تطاولك أيها المجنون.

– كفى هراء! ألست تريد ثمن ثوبك اللعين وتترك تلك المسكينة؟

ضحك ساخرًا وقهقه وهو يقول: نعم، هات الألف درهم الآن وسأتركها وسأعفو عنك أنت الآخر.

ولن نراك في هذا السوق مرةً أخرى؟

صمت برهةً ثم رد عليه وهو يعلم أنها لن تقدر على الدفع: لك هذا أيضًا.

- حسنًا، لقد شهد عليك الجميع، يا أهل السوق الكرام، ألا يُساوي تخلصكم من ذل وظلم هذا المُتعجرف إلى الأبد عدة دراهم من كل منكم؟ عدة دراهم تُعيد إليكم حريتكم وكرامتكم المهدورة على يديْه؟ ستجوعون بضعة أيام ثم تستيقظون دون تواجده ودون تذمركم وخوفكم كلما رأيتموه ودون ذلكم الأبدي؟ فليجمع كل منكم ما يقدر عليه ونُلقي له نقوده ولا نرى وجهه الكريه مرةً أخرى.

ينظر الجميع إلى بعضهم في عجبٍ وتردد؛ ها قد جاء منقذهم الذي طالما انتظروه، لا حجة لهم الآن لضعفهم واستكانتهم، هل يخذلونه ويظلون على حالهم؟ ماذا سيقولون لأبنائهم وأحفادهم حين يورثون ذلهم لهم؟ جاءنا شاب ليُعيد لنا كرامتنا المهجورة واستسلمنا لذلنا؟

لم يتحرك أحدٌ لبضع دقائق، فهي سابقةٌ لم تحدث من قبل وتحتاج لتفكيرٍ عميقٍ.

ينتظرون أيضًا من يبدأ، لا يبدأون من تلقاء أنفسهم أبدًا.

يُخرجهم الشاب ويُلقي بعشرة دراهم تحت أقدام الثري، تبدأ الأموال في الانهمار تحت قدميْه درهمًا فدرهمين فثلاثة، دقائق وتتجمع الألف درهم في وسط ذهوله.

لم يتوقع أن تُؤخذ منه هيبته بتلك السهولة، هو من جاء اليوم إلى السوق والجميع يرهبونه والآن يقف أمامهم لا حول له ولا قوة ونظراتهم الثاقبة مثبتةٌ عليه تبث الخوف في نفسه لأول مرة.

– سآخذ ثمن الثوب، ولكنني لن أترككم بعد السفاهات التي فعلتموها في أسيادكم.

ينحني يُلملم النقود المتناثرة ليجد قدم الشاب أمام وجهه.

– أين الثوب؟

– أي ثوب؟

– الثوب الذي دفعنا ثمنه، أنت أخذت نقودك ونحن نريد ثوبنا.

– ماذا تعني؟ أأصابك الخرف أم ماذا؟ أتريدني أن أخلع ثوبي وأعود لقصري عاريًا؟

– لم يعد ثوبك الآن، لقد أخذت ثمنه فأصبح ملكنا، لا يهمنا ما تقول نحن نريد حقنا.

همَّ أن يصرخ فيهم إلا أنه وجد نفسه في وسط حلقةٍ غاضبةٍ من البشر لا أول لهم من آخر، شعر أنه كالفأر المذعور في المصيدة لا يستطيع الهروب.

– حسنًا حسنًا، خذوا الألف درهم واتركوا لي ثوبي!

– هو ثوبنا الآن ونحن من نُحدد سعره الجديد، نريد ألفي درهم ثمنًا له.

– ألفي درهم؟ ولكنكم أعطيتموني ألف درهم فقط منذ لحظاتٍ.

– لا شأن لنا بما دفعت.

- لن أعطيك سوى ألف درهم.

- إذن أعطنا ثوبنا!

- ولكن هذا ظلم.

- الآن تتحدث عن الظلم؟! الآن تريد العدل حين يقع الظلم عليك؟ هكذا نحن دائمًا، ما دام الظلم بعيدًا عنا لا نبالي.

نظر إلى المُحيطين يبحثُ عن بصيصٍ من تعاطفٍ في عيونهم ولم يجد ذرة منه تُعطيه الأمل في الخلاص مما هو فيه؛ أعطاهم الألف دينار التي جمعوها وزيادة عليها ألفًا أخرى من ماله الخاص. فتحوا له الطريق ليرحل عنهم وذهب ذليلًا مُنكَّس الرأس لم يره أحدٌ رافعه مرةً أخرى.

انطلقت صرخاتُ الفرح والسعادة من الجميع غير مُصدقين أنهم تخلصوا من الغم الجاثم فوق صدورهم كالخفاش حين يلتصق بوجه أحدهم ولا يتركه، وحلت البهجة في كل أركان السوق وأعاد الشاب لكل من دفع حقه وأعطى الألف درهم الأخرى للفتاة الشابة لتعود إلى أبنائها غير مصدقةٍ ما حدث.

وسط الأناشيد والأهازيج لم يلحظ أحدٌ الشاب المُتجهم ابن صاحب الثوب وهو ينظر إليهم من وسط الأشجار البعيدة نظراتٍ متوعدةً ينتظر أن تنتهي أفراحهم ويعود الإنسان مرةً أخرى إلى النسيان، حتمًا سيعود....

***

قَفْزَة حُرَّة مُبَاشِرَة

ساد الهرج والمرج تحت تلك العمارة تحت الإنشاء في إحدى المدن الجديدة الثرية، عشرات من البشر ينظرون جميعًا إلى أعلى نحو شرفة أحد الطوابق العليا، يصرخون جميعًا ويصيحون ولا ندري أيصل صراخهم لها أم لا؛ تلك الأربعينية الجميلة التي تقف على سور الشرفة وتستعد للقفز، يُمسك البعض بملاءةٍ لا يعلم أحدٌ كيف ظنوا أنها ستحميها من السقوط.

- انزلي يا مجنونة!

- لا شيء يستحق الانتحار.

- أنت ما زلت في شبابك.

- كل مشكلة ولها حل.

لا تعبأ بهم كأنهم العدم، حاول البعض الصعود لإثنائها عما تفعله فتهددهم بالقفز لو اقتربوا.

سمع الجميعُ سرينة سيارة الشرطة، نزل منها ضابط وبعض العساكر، توجه الضابط إلى بعض الأهالي المُتجمهرين ليستفسر عن

الأمـر ثـم دخـل المبنـى وصعـد إلى الطابـق الموعـود.

اقترب من الشرفة ببطءٍ وهدوءٍ.

- ابتعد عني وإلا ألقيت بنفسي!

- وماذا تنتظرين؟

أصابتها إجابته غير المتوقعة بالدهشة.

- أنتظر... أنتظر... لا أدري.

- تنتظريـن لحظـة الشـجاعة، تلـك اللحظـة التـى لـن تـأتي أبـدًا، أتظنـين أنـه مـن السـهل أن تُنهـي حيـاة إنسـان حتـى لـو كانـت حياتـك أنـت شـخصيًّا، تُنهـي سـنواتٍ في لحظـةٍ، لحظـة فارقـة تأخـذك مـن المعلـوم إلى المجهـول، تُنهـى طفولتـك ببراءتهـا النقيـة، تنهـي مراهقتـك وحبـك الأول عندمـا دق قلبـك لأول مـرة بمشـاعر جديـدة عليـه، تنهـي سـنوات دراسـتك وتخرُّجـك، خطبتـك وزواجـك، شـعورك بـأول طفـلٍ وهـو يـركل بطنـك بقدمـه الصغـيرة أثنـاء حملـك لتستشـعري حيـاة داخـل حيـاة، تنهـي أول بـكاء وأول خطـوة وأول كلمـة لـه، تنهـي ذكرياتـك مـع والديـك وإخوتـك وجيرانـك وأصدقائـك، تنهـي حياتـك بـكل حلوهـا ومرهـا وسـعادتها وشـقائها في لحظـةٍ لتصبحـي مجـرد ذكـرى يتذكـرك البعـض لأيـام وأسـابيع ثـم تذوبـين في معـترك حياتهـم حتـى تختفـي، عـدم قفـزك إلى الآن يـدل عـلى جبنـك مـن اتخـاذك هـذا القـرار، تغلبـي عـلى تـرددك وانـزلي معـي!

- أنـت مُحـق، إنـه قـرارٌ صعـبٌ ولكنني فكَّـرت فيـه كثيـرًا ولـن يثنينـي أحـدٌ عـن تنفيـذه.

- أعطيني سببًا واحدًا يُبرر هذا القرار.

- الملل.

ينظر لها في اندهاشٍ حقيقي.

- تظن أنني مجنونة؟ أما لو قلت لك إنني سأنتحر لأنني فقدتُ ابني في حادثٍ وزوجي يُعذبني ضربًا ولديَّ مرضٌ مزمنٌ وليس لديَّ نقودٌ لعلاجه لتحولت نظرتك تلك إلى نظرة شفقة لا اتهام بالجنون؛ أنا مجنونة لأنني سأتخذ نفس القرار ولكن لأسبابٍ تراها أنت واهية؛ تعرفون الجنون من وجهة نظركم أنتم، سأسألك سؤالًا: الجنون هو الفعل أم رد الفعل؟ لو رأيتني أغني بصوتٍ عالٍ في منزلي هل ستتهمني بالجنون؟ لو غنيت بنفس الصوت المرتفع في إحدى وسائل المواصلات العامة سينظر الجميع حولي إلى بعضهم نظرات شفقة على عقلي الذي ذهب، نفس الفعل ولكن نظرتكم هى التي حوَّلته لجنون، كما يحدث الآن، لو لديَّ أسبابٌ أقنعتكم بانتحاري لأشفقتم عليَّ أما لو لم تقنعكم أسبابي فأنا إنسانة مجنونة فقدت عقلها، فلتعتبرونني مجنونة إذن ولا تلوموا عليَّ.

- إذن هو الملل فعلًا؟ ألست سعيدة في حياتك؟

- لستُ سعيدة ولا غير سعيدة، أنا لديَّ زوجٌ ثري مُحب وأبناء في عُمر الزهور وحياة مستقرة رتيبة مملة أشعر فيها بالملا قيمة، شيء موجود وغير موجود. سأسألك نفس سؤالك، أنت سعيدٌ فى حياتك؟

- نعم سعيد، زوجتى تُحبني ومتفهمة لظروف عملي ولديَّ ملائكة صغار يملأون علينا حياتنا.

- أمتأكد أنهم أبناؤك؟

احمرَّ وجهه غضبًا وكاد أن يصرخ فيها ولكن صراخ المتجمهرين

بالأسفل نبَّهه أن يحتفظ بهدوئه ولا يغضب فيستثيرها ويفشل في مهمته، ردَّ عليها وهو يجزُّ على أسنانه:

- بالطبع متأكد.

- كلكم تقولون هكذا، ولكن ألا تظن أنها قد تكون اشتهت غيرك من قبل.

يُكمل جزًّا على أسنانه:

- بالطبع لا.

- أنتما مخلصان لبعضكما إذن.

- نعم.

- أيها الزوج المُخلص ألم تشته أنت امرأةً غيرها من قبل، ألم تنظر بشهوةٍ إلى راقصة أو ممثلة أو امرأة تمر في الشارع تلبس ملابس مثيرة؟

سكت برهة وقد ألجمه السؤال.

- لم ترد عليَّ بإجابةٍ جاهزةٍ سريعةٍ كما كنت تفعل، لماذا تظن أنك تشتهي غيرها وتُنكر عليها هذا الأمر خاصة أن ظروف عملك كشرطي قد تجعلك تغيب عنها بالأيام، قد تشتهي نجم سينما مفتول العضلات أو زميلًا وسيمًا في العمل أو أحد الأثرياء.

رغمًا عنه أتت صور أولاده في مخيلته وتساءل عن بُعد شبههم عنه ولكنه نفض تلك الهواجس التي أثارتها تلك المجنونة في نفسه.

- وما صلة ما تقولينه بما نحن فيه الآن.

- أريدك أن تفهم أنه لا شيء حقيقيًّا مائة بالمائة كما نراه؛ انظر إلى السماء فوقك أترى زرقتها؟ إنها ليست زرقاء تمامًا كالبحر الأزرق، نراها زرقاء لانعكاس ضوء الشمس عليها، كل ما تراه يجب أن تشك

فيه، نعيش في أوهامنا حتى تأتينا الحقيقة الوحيدة فجأة، الموت، وأنا قررت أن أذهب أنا إلى الحقيقة لا أن أنتظرها.

- كل ما أنت فيه بسبب أنك لم تجدي هدفًا لحياتك، أوجدي الهدف وستتغير تلك النظرة التشاؤمية لديك.

- وأنت ما هدفك في الحياة؟

- هدفي أن أنجح في عملي وأعيش حياة هانئة مع أسرتي.

- ثم؟

- ثم.. ثم..

- ثم الموت؟ فلِمَ الانتظار، مهما فعلت في سنوات عمرك سينتظرك نفس المصير فلم التعب والشقاء والملل وفي النهاية سيكون مصيرنا واحدًا، أتظن أنك لو غبت عن عملك أو أسرتك شهرًا واحدًا سيحدث فرقٌ في الكون؛ هل سيتوقف الضباط عن القبض على المجرمين أو ستتوقف زوجتك عن الطعام والنوم أو سيتوقف أولادك عن النمو؟ نظن أننا محور الكون رغم أننا لا قيمة لنا ولا جدوى من وجودنا كحمالة صدر في دولاب عاهرة؛ سيحزن عليك زملاؤك وعائلتك لأسابيع ثم يعود الكون إلى الدوران مرة أخرى، بك أو بدونك سيتحرك الزمان بلا توقف ولا رجعة إلى الخلف، وقد تتزوج زوجتك من آخر وتنام معه على سريرك ويفعل بها كما كنت تفعل، أتظن أنها في وسط العَلاقة الحميمة مع غيرك وهي تتأوه من النشوة ستتذكرك؟ أبناؤك الذين ينتظرون عودتك من العمل الآن سيعتادون غيابك وينسلخون في دوامة الحياة وتصبح بعد حياتك الحافلة مجرد ذكرى كما قلت لي من قبل، ستصبح نسيًا منسيًّا كما بات أجدادك من قبل، منذ خمسين عامًا كان أجدادي وأجدادك ملء السمع والبصر،

لـكل منهـم حيـاة وأولاد وعمـل وهمـوم وسـعادة ودمـوع وابتسـامات وإذا حدثـت لهـم مصيبـة أو فقـدوا ابنًـا أو خسـروا أموالهـم كانـوا يظنـون أنهـا نهايـة العـالم، أيـن هـم الآن؟ تحـت الثـرى فـرغ الـدود مـن التهـام أجسـادهم الفانيـة منـذ زمـنٍ.

أصابتـه كلماتهـا في مقتـلٍ، انتبـه لخـواء حياتـه فعـلًا، شـعر أنـه مثلهـا، لا سـعيدًا ولا غـير سـعيدٍ، شـعر بضآلتـه الشـديدة وسـط تـروس الحيـاة، تلـك الحيـاة التـي لا تُسـاوى جنـاح بعوضـة بعـد كل شـقائها وكدِّهـا، سـنوات ويخـرج عـلى المعـاش وتتدهـور صحتـه وتتذمـر زوجتـه وأولاده لـو كانـوا أولاده حقًـا مـن طلباتـه التـي لا تنتهـي، بعـد أن كان يمـشي فيرهبـه الجميـع سـيصبح ذليـلًا مريضًـا يخجـل أن يطلـب مـن أحـدٍ أن يدخلـه حتـى الحـمَّام ليبتـل ببولـه وغائطـه ويحتـاج لمـن يُغـير لـه ملابسـه، بعـد أن كان مهيـب الركـن يصبـح منبـوذًا في الركـن لا أحـد يأبـه لوجـوده ويتمنـون زوالـه مـن حياتهـم بعـد أن كان كل حياتهـم. فليختـرْ مصيـره بيده ويتخلـص مـن أعبـاء تلـك الحيـاة الدنيـا الدنيئـة ولا يـترك حياتـه كريشـةٍ في مهـب الريـح، لا يتركهـا في يـد الآخريـن يتحكمـون بهـا كـما يشـاءون ككـرةٍ بـين أقدامهـم؛ مصيـره بيـده لا بيـد عمـرو.

– انظـروا! لقـد أقنعهـا بالنـزول معـه، هـا هـو يقـترب منهـا ويمسـك بيدهـا، لقـد نجـح في مهمتـه.

يصرخـون جميعًـا في فرحـةٍ تحوَّلـت لصرخـات دهشـة وعويـل عندمـا وجدوهـما يُمسـكان بأيـدي بعضهـما البعـض ويقفـزان معًـا مـن فـوق سـور الشرفـة ولا تفلـح ملاءاتهـم في إنقاذهـما.

***

كُلثوميَّات
أغدًا ألقَاكَ

يا خوف فؤادي من غدي.. يا لشوقي واحتراقي في انتظار الموعد..
آه كم أخشى غدي هذا وأرجوه اقترابا...

اقترب موعد اللقاء، اللقاء مع أكثر من أحببت في حياتي. اشتقت له كثيرًا حتى إنني أتمنى أن أغمض عينيَّ وأفتحها فأجدني أمامه، رغم أنني أخطأت في حقه كثيرًا فإنني أعلم أنه لن يكسر بخاطري، فهو يعلم أنني أحاول جاهدة أن أنال رضاه، أفشل أحيانًا فأخاف من غضبه مني إلا أنني أتدارك نفسي على الفور.

عندما علمت بموعد اللقاء انتابتني مشاعر متضاربة، سعادة لأنني أخيرًا سأقابله بعد طول انتظار وخوفًا من أن يكون لا يزال غاضبًا مني منذ آخر مرة، لم أكن أقصد وندمت بعدها كثيرًا، ولكن لا أنا متأكدة أنه سيُسامحني فهو عشقي الأوحد الأول والأخير.

أحب كل ما يفعله، أحب كلامه، أحب حكمته، أحب كرمه،

أحب قوته، أحب اعتمادي عليه، لا أخطو خطوة سوى باستشارته، لم يخذلني أبدًا، يُساندني في كل شيء، أشعر معه دائمًا بالأمان، بدونه أنا لا شيء، عندما أبتعد عنه تفقد الحياة معناها وأشعر بخواءٍ شديدٍ، أتوق وقتها لأن أعود إليه في أقرب فرصة، يقف بجانبي في كل محنةٍ أعيشها ويخرجني منها مهما كنت بعيدةً عنه وقتها، يغمرني بحبه فيُشعرني بالخجل من نفسي. أحيانًا يتأخر في تلبية رغباتي، أغضبُ وقتها وأحزنُ وأكتشفُ بعدها أنه اختار الأفضل لي كما يفعل دائمًا.

سألقاك قريبًا يا ربي، فقد أخبرني الأطباء أنني لن أعيش طويلًا فتقبلني قبولًا حسنًا في زمرة عبادك المُقربين يا رب، فأنت كل حياتي ولا أحيا سوى لك يا حبيبي يا الله.

***

٣×١

يـدق جـرسُ البـاب فيفتـح عينيْـه في بـطءٍ، ينظـر إلى سـاعته فيجدهـا السـابعة صباحًـا، مـن الـذي يـأتي في هـذا الوقـتِ المُبكـر؟

ينظـر إلى زوجتـه النائمـة بجانبـه بوجههـا الملائكـي وشَـعرها الـذي يتناثـرُ بعذوبـةٍ عـلى وجههـا.

يقوم من مرقده ليفتح الباب.

يرى شابًّا في العشرينيات من عمره، ينظر إليه متسائلًا.

– من أنـ...

يبتلـع بقيـة كلامـه وينظـر إليـه في ذهـولٍ، الواقـف أمامـه نسـخة شـابة منـه، كأنـه هـو منـذ بضعـة وعشريـن عامًـا.

– أخيرًا وجدتك، أبحث عنك منذ زمنٍ.

– من أنت؟

– أنا أنت.

– ماذا تعني؟

– أنا أنت في شبابك.

- اذهب عن هنا يا مجنون!

- لستُ مجنونًا، تمهل، أنا أنت منذ أكثر من عشرين عامًا وجئت إليك لأعرف ما آل إليه مصيري في المستقبل.

- أنت فعلًا تُشبهني جدًّا عندما كنت ما زلت شابًّا في سنك.

- أرأيت؟ صدقتني؟

- وماذا تريد مني الآن؟

- قلتُ لك جئتُ لأتحدث معك قليلًا عن مصيري. قل لي كيف أصبحت؟

- أصبحتُ حيًّا.

- ماذا تعني، كلنا أحياء.

- أعني أنني أحيا وفقط، حياة والسلام.

- لماذا، ماذا يُحزنك؟

- لا شيء يُحزنني ولا شيء يُفرحني وأنت السبب.

- أنا السبب؟

- بالطبع، كل ما أنا فيه بسببك أنت، بسبب اختياراتك أنت. ألست أنت من اختار تلك الكلية العقيمة التي أدت إلى أن أعمل هذا العمل العقيم الذي لا فائدة منه؟ عمل روتيني لا إبداع فيه يتطلب مني النفاق والمجاملات وأن أكون «عصفورة» أبلغ عن زملائي لكي أحافظ على تلك الجنيهات القليلة التي تكاد تقيم بيتي، ألست أنت من ترعرع على السلبية والضعف وجعلتني بلا شخصيةٍ تُذكر، ظللت منسحقًا تحت وطأة قسوة أبيك ولم تُحرك ساكنًا أمام قسوته اللانهائية؟ تركتني وحيدًا بلا أصدقاء ولا أحظى باحترام أحد؟ ألست أنت من

تركت مها حب حياتي التي لم ولن أقابل مثلها؟ تلك التي كانت ستجعل حياتي جنة وارفة وسط صحرائها القاحلة؟ أنت من جعلت حياتي أيامًا متعاقبةً لا جديد فيها، تقليدية كتعاقب الليل والنهار؟

– ما هذا ما هذا؟ اهدأ اهدأ، كل هذا في قلبك نحوي؟

– وأكثر، أنت السبب في تعاستي الأبدية.

– تلومني على كل ما حدث لك في حياتك، عملك هذا أنت الذي اخترته لا أنا.

– ولكنك مَن اخترت الكلية الـ....

– أنت تعلم أنني لم أخترها وأجبرني أبي عليها، وبعد التخرج عملت أعمالًا لا عَلاقة لها بشهادتي، أنت مَن اخترت إذن عملك الذي تكرهه هذا، وأنت تعلم ماذا حدث وقت اختيار الكلية، هددني أبوك أن يطردني من البيت ولا يتكفل بأيٍّ من نفقاتي بعد أن رفض أن أدخل كلية الفنون الجميلة وأبلغ جميع أقاربي أن من يؤويني في بيته ستكون عاقبته سيئةً وأنت تعلم أنه يستطيع فعل ذلك، ماذا كنت تريدني أن أفعل؟ أذهب لأعيش في الشوارع مع الكلاب الضالة ألتقط طعامي من أكوام القمامة؟ ولكن ما أن أنهيت دراستي بدأت العمل وأصبحت قادرًا على تحمل نفقاتي البسيطة بدأت تنمو داخلي بذرة التمرد التي يبدو أنك قد أخمدتها وعملت العمل الذي أحب ولم أوافق على الزواج من ابنة عمي التي أصر على أن يزوجني إياها.

– بذرة تمرد؟ بعد خراب مالطة؟ بعد أن أفقدتني مها.

– مها مها، ألا تمل من هذا الموضوع؟ ثم إن مها هي التي تركتني لا أنا، لم تستطع أن تصبر عليَّ عامًا واحدًا حتى أنهي دراستي وأستقل

عـن أبيـك، لم تقـاوم عرسـان أبيهـا الذيـن كان يـأتي بهـم لهـا. ثـم إنهـا لم تكـن مقتنعـةً بعملـي وقالـت لي إنني لـو لم أتركـه وأبحـث عـن غـيره فلـن تكـون لي، وأنـا لـن أتـرك مـا أحـب ومقتنـع بـه مـن أجـل أي أحـد.

– تريدها أن تُقاوم أباها وهي الفتاة الضعيفة وأنت لم تُقاومه وأنت الرجل؟ ثم أي عمل هذا الذي تتحدث عنه؟ أتُسمي الـ «سرمحة» في الشوارع ممسكًا بألوانك وفرشك لترسم المارة بأجرٍ زهيدٍ لإيمانك بموهبتك وحلمك المزعوم عملًا؟

– تريد لومي وفقط، ثم تعال هنا، ما أدراك أنك كنت ستكون سعيدًا معها وتتغير حياتك للأفضل؟

– أمجنون أنت؟ بالطبع كنت سأكون سعيدًا، إنها مها.

– هل رأيتها وهي لا تزال مستيقظةً من النوم من لحظاتٍ؟ هل رأيتها وهي تصرخ ليلا ونهارًا في أبنائها؟ هل رأيتها بعد أن ازداد وزنها بعد الحمل والولادة؟ هل رأتك هي وأنت كما أنت الآن بطنك متر أمامك، أصلع وشَعرك أوشك على النفاد؟ هل رأتك وأنت تملأ الدنيا صراخًا على أتفه الأسباب لأن لديك مشاكل في العمل بعد أن كنت تضحك ملء فِيك مع أصدقائك منذ لحظات؟ كم من قصص حب أسطورية توَّجها الزواج بالفشل فلا تجعلني شماعتك التي تُعلق عليها بؤسك وأحزانك، ثم قل لي متى كانت آخر مرة رسمت لوحة جميلة أو كتبت شعرًا؟ تركتك وأنت بارعٌ في الرسم والشعر. أما زالت لديك تلك الموهبة؟

– شعر ورسم؟ أضحكتني يا فتى، لا تزال لديك براءة وحماس الشباب، لم أرسم أو أكتب شيئًا منذ أن استلمت عملي وتزوَّجت.

– أنت متزوج إذن؟ وأين هي زوجتك؟

- نائمة بالداخل.

- سأذهب لأراها.

يقف الأربعيني أمام حجرة نومه ويمنع العشريني من الدخول.

- أجننت أم أصابتك لوثة؟ أتريد أن تدخل على زوجتي وهي نائمة بملابس النوم؟

- زوجتك؟ إنها زوجتي أنا أيضًا يا أحمق.

يقلب الأربعيني الكلام في رأسه ولكنه لا يبرح مكانه، يعلم أن كلام الشاب صحيح ولكن فطرته تمنعه.

يُمسك الشاب بقوته الفتية بالزوج ويُلقيه جانبًا ويدخل إلى غرفة النوم.

- متزوج من تلك الحسناء الفاتنة ولست سعيدًا معها وتلومني على مها.

- نعم لستُ سعيدًا معها فهي ككل النساء، ليس فيها شيء مميزٌ يجذبني إليها، ليست هي ما كنتُ أحلم بها، لم تستطع أن تملكني وتجعلني أدور في فلكها، تقليدية ككل حياتي.

فجأة يسمعان طرقًا على الباب، يذهب الأربعيني ليفتح الباب فيجده أمامه، يجد نفسه بعد حوالي عشرين عامًا قد اشتعل رأسه شيبًا.

- لا أصدق أن بعد كل هذا البحث أجدكما معًا.

- ماذا يحدث لي اليوم؟ أأنت مستقبلي؟

- نعم يا بني، أنا مستقبلك الذي لا مفر منه.

- احضرنا يا شيخنا، ما دام مصيرنا عندك، يقول إنني السبب في بؤسه ويأسه، يلومني على فشله في عمله وحياته الزوجية، متزوج من «صاروخ» وغير سعيد معها، ما ذنبي أنا.

- تحشَّم يا بني! لا تتحدث هكذا عن زوجتي!

- أف لكما أنتما الاثنان، لمَ لا تقتنعان أنها زوجتي أنا أيضًا.

- نعم أنا غير سعيد معها، حياتي يملؤها الخواء وهي بجانبي.

-خواء؟ تلك التي تنام بالداخل لم أشعر بخواء في حياتي سوى بعد أن تركتني، بعد أن ماتت وتركتني وحيدًا، لم أشعر بقيمتها في حياتي سوى عند فقدها، كانت بجانبك دائمًا وتحملت سخافاتك ومزاجك المضطرب دائمًا وصراخك الدائم في وجهها، تخلت عن الحلم الذي يُراود جميع النساء، الأمومة، من أجل أن تبقى بجانبك ولم تُشعرك لحظةً واحدةً بتلك التضحية بعد أن علمتما أنك لا تستطيع الإنجاب، كانت تنام الليالي ودموعها منهمرة حزنًا على عدم اهتمامك ولامبالاتك نحوها، معاملتك لها أورثتني حسرةً جعلتني أبكي دمًا عند وفاتها وجعلتني أعيش حياتي الباقية غارقًا في بحار الندم.

- كل منا يلوم الآخر إذن.

- نعم، فلقد كان باستطاعتك تغيير حياتك بدلًا من التعلق بأذيال خيبة الماضي، لماذا ظللت في عملك الذي تكرهه ولم تحاول البحث عن آخر؟ أو على الأقل لا تتخلص من مبادئك التي ربانا عليها أبونا رغم قسوته لتعيش؟ لماذا توقفت عن الشعر والرسم، تلك الأشياء التي كانت تربطك بعالم البهجة والحياة والأمل؟ لماذا ركنت إلى فشل عَلاقتك بمها فظلمت إنسانةً لا ذنب لها ولا جريرة سوى أنها أحبتك؟ أتعرف لماذا؟ لأن تلك كانت منطقة راحتك التي

تخشى المخاطرة بتغييرها وتحمل مخاطر التغيير الذي سيُصيب حياتك، كالجنين في رحم أمه الذي يعيش في أمان وما أن ينزل من بطن أمه يبكي حسرةً على الأمان الفائت وخوفًا من المستقبل القادم، أنت لم ترد أن تتغير حياتك إلى الأفضل ولكنك رضيت بحياتك وبؤسها المزعوم رغم أنه كان بيدك أن تخرج من فقاعة أحزانك التي صنعتها لنفسك وسعدت بها.

– أنا المخطئ إذن، كل منكم نصَّب نفسه قاضيًا عليَّ وأثبت جرمي وبراءته، أصبحتم الخَصم والحَكم.

– رغم أنني أصغركم سنًّا وأقلكم خبرةً فإني أقول لكم إنه لا فائدة من ذلك الجدال السفسطائي، كل منا مسئولٌ عن قراراته واختياراته وما يترتب عليها بالطبع ولكن ليس كل اختيار هو آخر المطاف، يجب ألا نلوم بعضنا البعض فكل منا كان بإمكانه التغيير ولم يفعل، التبعات التي تصل لكل منا تؤثر في حياتنا ولكننا يجب أن نغير المسارات الخاطئة التي بيدنا إلا إذا كان الأمر إجبارًا، كأن أتهور أنا وأقتل أحدهم في مشاجرةٍ فتقضي أنت حياتك في السجن وتخرج أنت من السجن مُحطمًا مُنهكًا انتهت حياتك قبل أن تبدأ، أنا فقط من اخترت هنا وأنتم تحملتم تبعات أفعالي، كل منا يرث إرثًا ثقيلًا مختلفًا من قبله فعليه أن يُحسن التصرف بهذا الإرث، يمحو منه ما يريد ويزيد عليه ما يرغب، لذا لا يُمكن لأحدنا أن يحكم على الآخر، فكل منا ينظر إلى الحياة من منظورٍ مختلفٍ، أنا أنظر إلى الحياة من واقع حماس الشباب وتهوره، أترك العمل بشهادتي وأعمل العمل الذي لا يُرضي سواي، لا أستمع إلى نصيحة أحدٍ أيًّا من كان، فأنا على صوابٍ دائمًا وأفعل ما يحلو لي، هذه طبيعة المرحلة التي أمر بها.

أمـا أنـت فتنظـر إلى الحيـاة بمنظـور آخـر لسـعيك إلى تكويـن أسرة وصناعـة حيـاة، تندثـر روح المغامـرة والمجازفـة وتتملـكك روح الثبـات والاسـتقرار، وأنـت تُحدثنـا وتنصحنـا مـن واقـع خـبرات السـنين المتراكمـة التـي لم تتوافـر لنـا، لـو لبـس كل منـا حـذاء الآخـر ومشـى بـه لبعـض الوقـت لفهـم وجهـة نظـر الآخـر في الحيـاة، تلـك الحيـاة التـي تمـلأون سـطورها بالأحـزان، حيـوات لا قيمـة لهـا لـو تعلمـون، أنتـم مجـرد حـروف في سـطور الكـون مـا أن تكتـب حتـى تمسـح ويكتـب غيرهـا، بـشر وسـط مليـارات آخريـن لا يأبـه لكـم أحـدٌ سـواكم.

بينـما هـم يتناقشـون في جـدوى حياتهـم يسـمعون صـوت فرملـة سـيارة مرتفـع جـدًّا ثـم صـوت ارتطـام، يخرجـون جميعًـا ليسـتطلعوا الأمـر فيجـدون رابعهـم، نسـخة شـائخة عجـوزة متهالكـة منهـم ترقـد عـلى الأرض كأعجـاز نخـلٍ منقعـر بجـواره عـكازه وتنـزف منـه الدمـاء.

– يبدو أنه كان في طريقه إلينا.

ينظـرون إلى بعضهـم في ذعـرٍ، يبـدأون في التـلاشي تدريجيًّـا، العشريني فالأربعيني فالسـتيني، تنتشر ذراتهـم كرمـالٍ تذروهـا الريـاح حتـى يختفـوا تمامًـا ويسـود حولهـم سـواد العـدم.

***

المحتويات

أكدب عليك! ٩
مِن حقِّنا نحلُم ١٧
سُوق الحلاوة ٢٧
أحزانٌ ذهبيةٌ ٣٧
سَبْر الأغوَار ٤٥
هاملت ٥١
القلبُ وما يُريد ٥٣
الرِّحلةُ العَجِيبَةُ ٦١
الرَّقصُ على أنغامِ الموتِ ٦٩
اقرأ كتابك! ٧٥
خَوَاطِرُ شَيْطَانِيَّةٌ ٨٣
ماذا تفعلُ لو كنتَ مكاني؟ ٨٧
إكرامُ المَيِّت ٩١
سُقُوطُ الأَقْنِعَةِ ٩٧
البِليَاتشو ١٠٣
مَلَائِكَةٌ فِي النَّارِ ١٠٧
تَاجِرُ الذِّكْرَيَاتِ ١١٥
المَتَاهَة ١٢٣
مِنْ حَقِّنَا نَحْلُم ٢ ..... ١٣١

كُلْثُومِيَّات ١٣٧
هسيبك للزمن ١٣٧
كُلثُومِيَّات ١٤٥
فات الميعاد..... ١٤٥
النَّظرَة ١٥١
حتَّى تَأْتِي العَاهِرَةُ..... ١٥٧
الاخْتِيَار ١٦٥
القَرْيَةُ الصَّامِتَةُ..... ١٧١
اللُّعبَةُ الأَخِيرَةُ..... ١٧٧
مَجْنُونَة يَا كُورَة..... ١٨٣
أَسْعَد رَجُلٍ فِي العَالَم..... ١٨٩
الثَّوْبُ المُبَقَّعُ..... ١٩٣
قَفْزَة حُرَّة مُبَاشِرَة ٢٠١
كُلثومِيَّات ٢٠٧
أغدًا ألقَاكَ..... ٢٠٧
٣×١..... ٢٠٩